

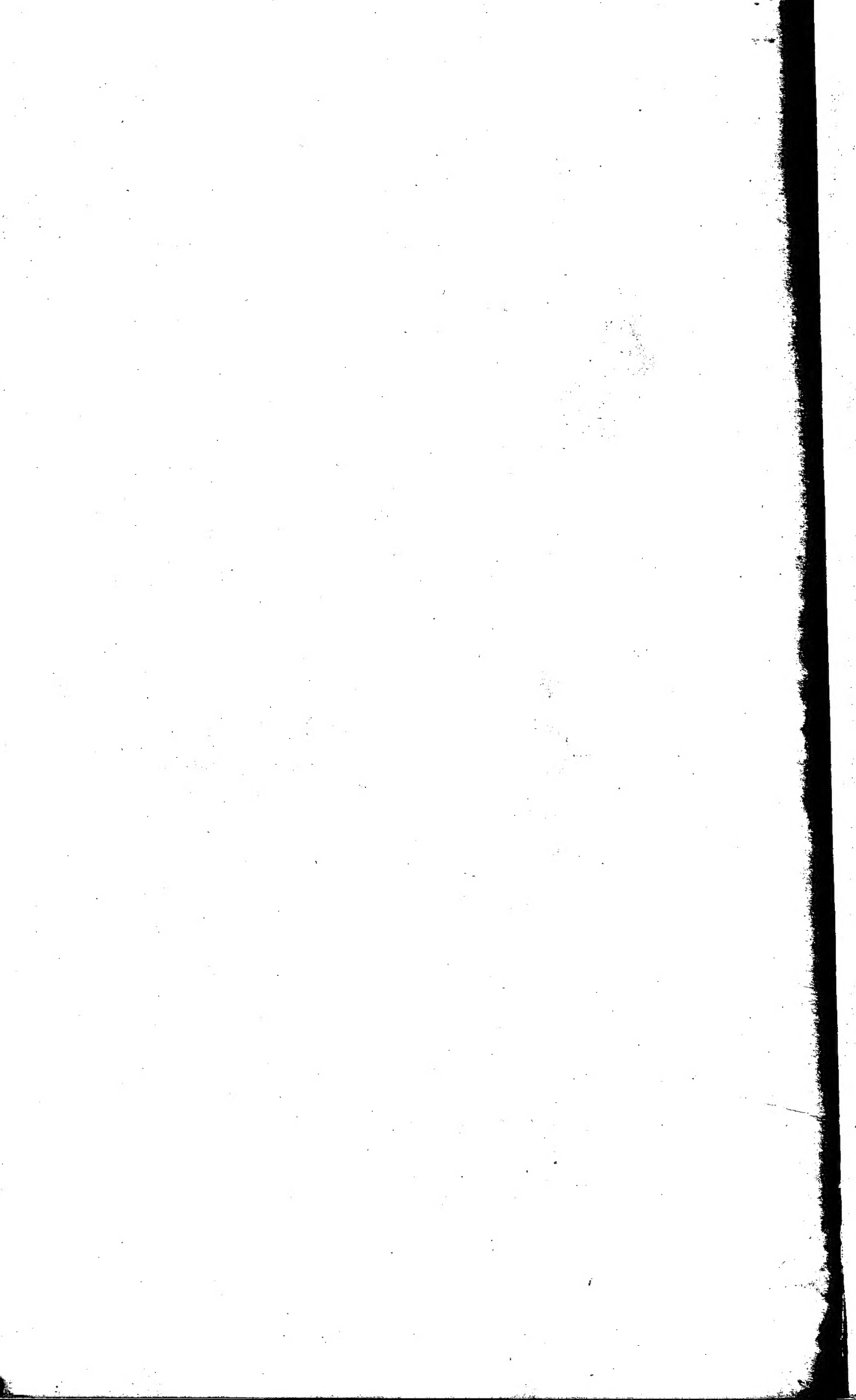
المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات
بيت الحكمة

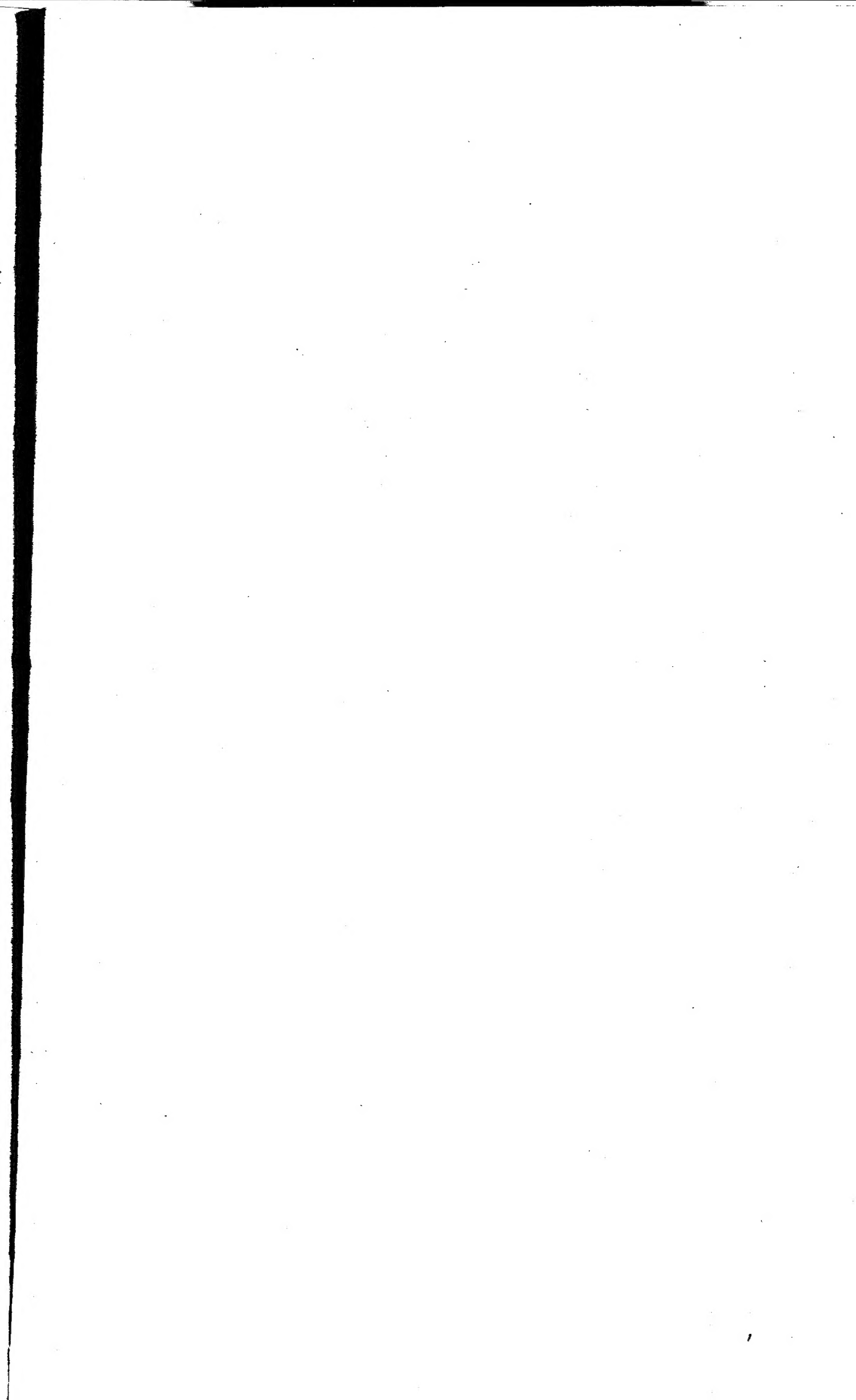
سبع رسائل مخطوطة لـ:
هاينريش بارت
عن رحلته إلى تونس
1845 - 1846

تحقيق وتعريب
منير الفندري

1987

الثمن : 2،000د







المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات
بيت الحكمة

سبع رسائل مخطوطة لـ
هاينريش بارت
عن رحلته إلى تونس
1845 - 1846

تحقيق وتعريب
منير الفندري

الايداع القانوني : 87/ 140
الثلاثة أشهر الأولى 1987

سحب من هذا الكتاب 3000 نسخة في طبعته الأولى

مطبعة القومية للنشر

مقدمـــة

في نطاق أبحاثنا حول الرّحالة الالمان الذين زاروا البلاد التونسية خلال القرون الفارطة عثرنا بقسم المخطوطات التابع لمكتبة الدولة والجامعة بهمبورغ وضمن أوراق الرّحالة الشهير هاينريش بارت (1821ـ1865) على مجموعة من الرسائل التي كتبها خلال اقامته بالقطر التونسي فيما بين 24 نوفمبر 1845 وغرة افريل 1846 . ولئن وردت تفاصيل هذه الاقامة الطويلة نسبيا ضمن كتابه الصّادر سنة 1849 بعنوان :

« **Wanderungen durch die Küstenländer des Mittelmeeres, ausgeführt in den Jahren 1845, 1846 und 1847. (Berlin 1849.)**» .

فان التّأريخ التونسي خاصة والمغربي عامة يرى فائدة ولاشك في نشر هذه الرسائل ، لا سيما بعد تعريبها ، وذلك لما تنطوي عليه من قيمة وثائقية متعددة الجوانب.

اشتهر هاينريش بارت من بين الرّحالة الغربيّين الذين ساهموا خلال القرن التاسع عشر في استكشاف القارة الافريقية والتعريف باسرارها ــ بصرف النظر عمّا تضمّن ذلك من أبعاد استعمارية ــ فقد قام فيما بين 1850 و1855 برحلة جريئة (على نفقة السلط الانكليزية) توغّل خلالها في بقاع من افريقيا الوسطى لم تطأها أرجل أروبية حتى ذلك الحين ، وعاد بمعلومات واستنتاجات رائدة كان لها عميق الصدى في مختلف الاوساط العلمية ، أكسبت صاحبها صيتا لا يزال ذائعا الى اليوم.

وقد قام بارت قبل هذه الرحلة الافريقية بسنوات قليلة برحلة علميّة أخرى كان الهدف منها الطّواف حول حوض البحر الابيض المتوسّط لدراسة طبيعته الجغرافية وآثاره التّاريخية ، دراسة ميدانية مباشرة . وقد جاء هذا المشروع تكملة تطبيقية لبحث نظري حول تجارة مدينة « كورينت » الاغريقية كان قدّمه في صائفة 1844 لنيل الدكتوراه في العلوم الانسانية من جامعة بولين . وبعد ان حصل بارت على موافقة أبيه ــ وهو مجرد تاجر لحوم ــ في مدّه بالدّعم المالي ، انطلق في جانفي 1845 من همبورغ ، مسقط رأسه ، وهو لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره بعد [1]. فقصد اولا العاصمة البريطانية « لندن » لاتمام تحضيراته العلميّة والماديّة وأمكن له أن يحصل في هذه العاصمة ، وبفضل وساطة صديق أبيه ، « السنتور » كارل سيفكينغ ، على رسائل توصية ضمنت له من بعد مساعدة القناصل الانكليز ورعايتهم في مختلف المراحل التي مرّ بها .

وفي أوائل شهر أوت (1845) اجتاز مضيق جبل طارق وحلّ بطنجة ، فوطأ لاوّل مرّة تراب شمال افريقيا .

وبعد ان طاف بالمغرب الاقصى وبالسواحل الجزائرية ، استقلّ سفينة بخاريّة من مرسى عنّابة وحلّ بميناء حلق الوادي يوم 24 نوفمبر 1845 .

كان شوق بارت الى القطر التونسي كبيرا ، لانّه كان يرى فيه ، على غرار معاصريه من المثقفين الغربيّين ، موطن الكيان القرطاجنّي العتيق . واحس فعلا بنشوة عظيمة لوجوده بين آثار هذا الكيان ، وعبّر عن هذا الشعور بقوله :

« حللت الآن بتراب دولة من أقوى الدول المتحضّرة في العالم القديم ، كانت نقلت العنصر الشرقي السّامي بعيدا الى الغرب وأنبتته على قاعدة متينة ومؤهّلة لنمو حضارة زاهرة ، ثم طمحت ، انطلاقا من هذه القاعدة ، الى زرعه كذلك في ربوع غرب أوروبا على حساب المدنيّة الايطاليّة الاغريقيّة . لقد وجدت نفسي في هذه الأرض التي اندلعت منها مرارا المعارك الرّامية إلى السّيطرة على مصير البشريّة ، والتي شهدت بنفسها في عديد المناسبات فصولا حاسمة من هذا الصراع » [2]

وراق لبارت المقام بهذه الارض ، لا سيّما ان السّلط المركزية والجهوية وفرت له بفضل وساطة القنصل الانكليزي « وليم ريد » لدى « الباردو » تسهيلات كبيرة . ولم يبخل عليه أحمد باى (1837 ــ 1855) بمكاتيب الدّعم ، التي ضمنت له

حفاوة القيّاد والشيوخ أينما حلّ وعيّن له الجند لمواكبته والسّهر على سلامته ، فتيّسر له أن يجوب البلاد وأن يطوف بربوعها وتنقل بشراهة وبحرية شبه مطلقة من مدينة الى أخرى ، ومن موقع أثري الى آخر ، الى أن غادر الآيالة من أقصى جنوبها الشّرقي في الفاتح من أفريل 1846 .

ولقد قام « بارت » خلال إقامته هذه ، علاوة على جولات قصيرة بضواحي تونس والمناطق المجاورة (أوتيكا وزغوان وبنزرت إلخ ...) برحلتين طويلتين ، قصد في أولاهما مدينة صفاقس عبر الوطن القبلي ومدن السّاحل وقراه (بما في ذلك القيروان والجم) . وتوجّه في الرّحلة الثّانية إلى الكاف عبر سهل وادي مجردة ، ثمّ حثّ الخطى صوب آثار حيدره وسبيطلة ؛ غير أن انتفاضة ظرفيّة لقبائل الجهة (الفراشيش) ، حالت دونه ودون تحقيق هذا الهدف فاضطرّ مكرها إلى التّعريج على القيروان . ثم واصل إلى قابس فجربة ومنها إلى طرابلس عبر جرجيس والبيبان . ولقد تخلّلت هاتين الرّحلتين زيارة إلى جزيرة مالطا استغرقت بضعة أسابيع فيما بين شهري جانفي وفيفري (1846) .

خلّف بارت ، كما سبق أن أشرنا ، وصفا مفصّلا لاقامته بالقطر التّونسي ، يمثّل كمّا حوالي نصف الكتاب المذكور أعلاه [3] ، مع العلم بأن هذا الكتاب ليس في الواقع سوى الجزء الأول من مجمل رحلته المتوسّطيّة ، ولا يغطّي إلا مجرى الأحداث فيما بين وصوله إلى المغرب الأقصى في بداية أوت 1845 ومغادرته للتّراب اللّيبي في جوان 1846 ، في حين أن الجزء الثّاني لم ينشر البتّة . ولم يترجم هذا الكتاب على ما نعلم ، إلى العربيّة ولا حتّى إلى الفرنسيّة ، رغم أهميّته البالغة بالنّسبة لتاريخ الأقطار المغربيّة في منتصف القرن التّاسع عشر . لهذا فمن شأن الرسائل الآتية أن تغطّي إلى حد ما هذا النقص فيما يتعلّق بتونس على الأقل ، وطورا من إقامة رحّالتنا بطرابلس (انظر الرّسالة السّابعة) ، وكذلك بالجزائر ، إذ أننا ألحقنا بالرّسائل « التّونسية » السّت التي عثرنا عليها ، رسالة أخرى حرّرت بعاصمة الجزائر بتاريخ 3 أكتوبر 1845 . أما الرسائل التي نعتناها بأنها « تونسيّة » فهي مؤرّخة كما يلي :

1 ــ تونس في 26 نوفمبر 1845 .
2 ــ الحمامات في 16 ديسمبر 1845 .
3 ــ سوسة في 21 ديسمبر 1845 .

4 ــ صفاقس في 1 جانفي 1846 .
5 ــ مالطا في 9 فيفري 1846 (وهي تحتوي على جزء ثان مؤرّخ بتونس في 20 فيفري الموالي) .
6 ــ قابس في 23 مارس 1846 (وهي تحتوي على جزئين إضافيين ، أولهما من جربة بتاريخ 28 مارس والثاني من طرابلس بتاريخ 5 أفريل 1846) .

وإذا استثنينا رسالة الحمامات التي بعثها بارت إلى كارل سيفكينغ ، فإن مجمل هذه المكاتيب موجّهة إلى والدي الرّحالة بهنبورغ . فلا غرو إن نحن لاحظنا إطالة في المواضيع العائلية والأمور الشخصية البحتة ، دون أي اعتناء بأسلوب الكتابة وقوام التّعبير .

بيد أن هذه الرّسائل تهمّنا ولا شك بما حوته من تفاصيل زمانيّة ومكانيّة تتعلّق بسير رحلة بارت في بلادنا ومن ملاحظات جغرافيّة وتاريخيّة صادرة عن خبير مختصّ ، ومن انطباعات اجتماعية واقتصادية وسياسية لا تخلو من الفائدة ، هذا فضلا عن قيمتها الوثائقية في حدّ ذاتها . وعلى ذكر « التّفاصيل الزّمانيّة والمكانيّة » فإننا نلاحظ تضاربا واضحا في تواريخ إقاماته بمختلف مراحل سفره بتونس بالمقارنة بين ما ورد في هذه الرّسائل وما جاء في نصّ الرّحلة . فنرى هنا مثلا أن بارت يحدّد وصوله إلى القيروان ، قادما من الحمامات إثر ليلة قضّاها بـ « دوار » بالبادية ، بتاريخ 15 ديسمبر (1845) ، في حين أن رسالته من الحمامات تثبت أنّه في يوم 16 ديسمبر لا يزال يقيم بهذه البلدة ؛ والسبب في ذلك أن رحّالتنا تعرّض عند وجوده بالحدود اللّيبيّة المصريّة إلى عمليّة سطو فقد من جرائها جلّ أمتعته بما في ذلك يومياته ومذكّراته ، الأمر الذي جعله يعتمد خصوصا على ذاكرته عند تدوينه لنصّ رحلته .

ونشير في الختام إلى أن اثنتين فقط من الرّسائل السّبع (وهما رسالة الجزائر ورسالة الحمامات) تم طبعهما [4] . أما البقية فهي تنشر لأول مرة ضمن عملنا هذا . ولقد اعتمدنا في تحقيق مجملها على نسخة (ميكروفيلم) من المخطوطات الأصلية التي ذكرنا مكان حفظها . ولاقينا في هذا التحقيق صعوبة كبيرة ، من جهة لرداءة النّسخة بسبب شفافية ورق الرّسائل الذي أدّى عند التّصوير إلى امتزاج نصّ الوجه الأمامي بنصّ الوجه الخلفي ، ومن جهة أخرى لأن الألمان كانوا سابقا يستعملون

في كتابتهم الخطّية حروفا تختلف في شكلها كل الاختلاف عن حروف الكتابة اللاتينية .

(1) ولد بارت بهمبورغ في 16 فيفري 1821 وتوفي ببرلين في 25 نوفمبر 1865 .

(2) انظر : H. Barth Wanderungen... ص 74 .

(3) يحتلّ القسم المتعلّق بـ « بايليك تونس » حوالي 220 صفحة (من ص 71 إلى ص 290) من مجموع 556 صفحة .

(4) انظر : **R. Italiaander, H. Barth. Er schloss uns einen Weltteil auf. Unveröffentlichte Briefe und Zeichnungen des grossen Afrika-Forschers. Hamburg 1970, pp 63-65; 141-142.**

الرسالة الأولى

الجزائر في 3 أكتوبر 1845

يوم الأمس ، يا أبي العزيز ، وهو يوم عيد زواجكما أنت وأمي — ولا شكّ أنكما تذكّرتماني في هذه المناسبة — وطأت قدماي من جديد السّواحل الافريقيّة التي لم تعد غريبة عني[1] ، فلقد أجبرتني ظروف شتّى ورياح معاكسة على إطالة الغياب عنها أكثر ممّا كان في حسباني ، وفي نيّتي أن أمدّد الاقامة بها هذه المرّة . لقد استكشفت المدينة وضواحيها على بعد بضع ساعات ، ولا يسعني إلا أن أعبّر لك عن اعجابي بجمال هذا القطر ولطفه ، حيث أخذت الثّقافة الأوروبيّة وأساليبها تتغلغلان بتزايد مستمرّ على حساب نمط العيش المحلّي . وتعترضك هنا في كل مكان حركة ونشاط ملحوظان ، فالمدينة في توسّع حسب مقاييس عملاقة ، والميناء بصدد التّهيئة لكي يصبح من أضخم الموانيء وأفخمها ؛ ولكن كما تعلمون عن طريق الصّحف ، فإنّ أهالي البلاد الأصليين يرفضون الاستسلام بسهولة ، ولئن أضحت السّيطرة على القطر أمرا مفروغا منه ، فإنّ ذلك يكلّف الفرنسيين دماء غزيرة وأموالا طائلة . أمّا المناخ فهو يمتاز هنا بجماله وروعته ، فاليوم بالذات بلغت الحرارة ثلاثين درجة وساد طقس ما كان قطعا يجعلكم تتنقّلون [من الرّيف] إلى المدينة ، لو أنه كان يسود عندكم . في غرناطة ، حيث قضّيت أجمل أيّامي بإسبانيا ، بقيت على الاجمال أحد عشر يوما من أجل مشاهدة المعالم الفنّية من ناحية ولألتقط الصّور بآلة « داغير »[2] من ناحية ثانية . وقد حذقت الآن استعمالها ولم يعد هناك أدنى خوف من إلحاق الضّرر بها . وعلى هذا الأساس يتسنّى لي الآن أن أعرب لك عن جزيل شكري على هذه الهديّة الغالية . صحيح أن ما أنفقته في سبيل حذق طريقة الاستعمال لا يستهان به ، بيد أنه يهون إذا راعينا أن محاولاتي في التّعوّد على استخدامها دون مساعدة كانت لا شك تكلّفني أكثر ـ

انطلقت من غرناطة على ظهر حصان في رحلة ممتعة للغاية ، عبرت خلالها بادىء الأمر منطقة جبليّة ثمّ سرت في سهل ممتع على طول نهر من الأنهار حتّى بلغت « ألماريا » وفي هذه المدينة ذات الطّابع العربيّ البحت بقيت خمسة أيّام في انتظار السّفينة البخاريّة ، لأنّ ماديّاتي لم تكن تخوّل لي تحقيق رغبتي ومواصلة الرّحيل على حصان . بيد أني لم أضع وقتي هباء ، بل أحسنت اسْتغلاله على أحسن وجه للمواظبة على دراسة اللّغة العربيّة [3].

وفي مساء الاربعاء ، قبل أربعة عشر يوما مضت ، امتطيت السّفينة ونزلت صباح الغد بمرفإ « قرطاجنة » الخلاّب ، المطوّق بالجبال ، والذي كانت له أهميّة كبرى في عهد القرطاجنيين والرّومان ، أي عصر الازدهار في تاريخ إسبانيا . ولقد زرت « ترسخانته » العظيمة ، المتداعية حاليا ، برفقة عامل كهل يغلب عليْه اليأس ، كما تسلّقت الجبال المحيطة التي تكوّن القلاع أجنحة لها ، للاطّلاع على كامل السّاحل البالغ الأهمّية ؛ وفي المساء أبحرت ثانية لأحلّ في الصّباح الموالي « بألكانتي » .

وهناك استقبلني بترحاب زائد السيّد « كرينستيارنين » الذي أتيته بتوصية من « بركمايرْ » كما لاقيت نفس التّرحاب لدى قنصلنا « هارمسين » . ولكن بقطع النظر عن هذا فإن الحظّ لم يسعفني في هذا المقام ، إذ أرغمتني ريح شرقيّة صرصر على المكوث ثمانية أيّام في هذه المدينة التي لم ألاق فيها ما يستحق الانتباه ، رغم أنها حاليّا تحظى ببعض الأهمية باعتبارها موقعا تجاريّا . وقضّيت ليلتين فوق السّفينة دون أن يكون في ذلك جدوى . ومن ذلك أيضا أننا أقلعنا مرّة وتقدّمنا بعض المسافة ، ولكننا ما لبثنا أن عدنا من حيث انطلقنا . وفي صبيحة الاثنين هبّت أخيرا ريح ملائمة دفعت بسفينتنا الصّغيرة التي حملت مائة من المهاجرين الاسبان ، والتي لم تتوفّر لي فيها أدنى أسبابَ الرّاحة .

لقد كنّا نأمل أن نصل إلى الجزائر خلال الأمسية الموالية ، لكن بعد

أن قطعنا خمسين ميلا سكنت الرّياح فلم نتمكّن من دخول الميناء إلا صباح أمس ، الخميس . وقبل هنيهة تسلّمت من القنصل رسائلكم الثّلاث العزيزة فزادتني لذّة في مقامي هنا . وقد استنتجت من قراءتها أن الأوضاع لا تزال على ما كانت عليه ، فأنت بمفردك ، وأمّي عادت إلى دأبها العادي ، وكلّكم بالمنزل القديم الضيّق ، وكأن هذا لا يكفي ، إذ عليكم أيضا أن تتحمّلوا فراق « لودفيج » الضّريف ـــ بالرغم من أنه ، وفضلا عن هذه الميزة ، عاق لا طائل منه . ثم إن تجارتك في اضمحلال ، يا أبتي المسكين ، إني أراك تمرّ بفترة حرجة . وفي هذه الأثناء يقوم ابنك العزيز برحلة مشطّة إلى أقصى درجة [4] . ماذا عساك تقول ، يا أبي العزيز ، إن أنا أخبرتك أن الثّلاثمائة فرنك التي أنفقتها على آلة التّصوير، إضافة إلى عقم « الكمبيالة » ريثما أحل بمالطا ـــ وهذا أصلا ليس ذنبي بل ذنب صاحب البنك « الباريزي » ـــ أدّت بي إلى الاعتماد على قرض « باركماير » بمدينة « ألكانتي » ، وحتّى لا أضطرّ إلى ادخال تحوير على مخطّط سفري ، وذلك بتوخّي الوصول مسبّقا إلى مالطا ، سحبت هنا مقدار 200 « دورو » أي 1053 فرنك . صدّقني إنه يؤلمني أن أسبّب لك دوما المزيد من النّفقات لكن أؤكّد لك أنه ليس لي خيار آخر إذا أردتني أن أستفيد من رحلتي كما ينبغي . والحقّ أنّي أقتصد أينما أمكن الاقتصاد . لكن لا بدّ لي من السّفر على أسس قويمة ، ولا يمكنك أن تتصوّر كم تستنفد رحلة علميّة واسعة كهذه من مصاريف ونفقات . هنا في الجزائر مثلا أنفقت إلى حد السّاعة 100 فرنك لاقتناء كتب وثياب وآلات . ويبدو لي الآن أني سوف لن أذهب إلى مالطا إلا عند وصولي إلى طرابلس . وسوف أنتظر في مالطا رسائلكم بعنوان « جامس بيل » وشركائه . أفهم أيضا من رسالتك يا أبي العزيز ـــ ولأسفي الشديد ـــ أنه فضلا عن الرّسالة الثّانية الموجّهة إلى « برشلونة » ، والتي سوف أتسلّمها ، هناك خطاب آخر لم يصل إليّ بعد ، هذا في صورة مكاتبتك لي فعلا في مكان آخر ، فإنا أشك كثيرا في أن تكون الثّمار قد وصلتكم ، خصوصا وأنّك في رسالتك الموجّهة إلى جبل طارق أخبرتني بنقيض ذلك .

فيما يتعلّق بالمكتوب إلى « دانتزيل » فابعثوه إلى والديه الذين لا شك أنّهما غادرا العنوان القديم . أمّا الرّسالة الموجّهة إلى مدينة « كيل » فالمرجوّ منكم تضمينها. رسم البريد [5] .

---

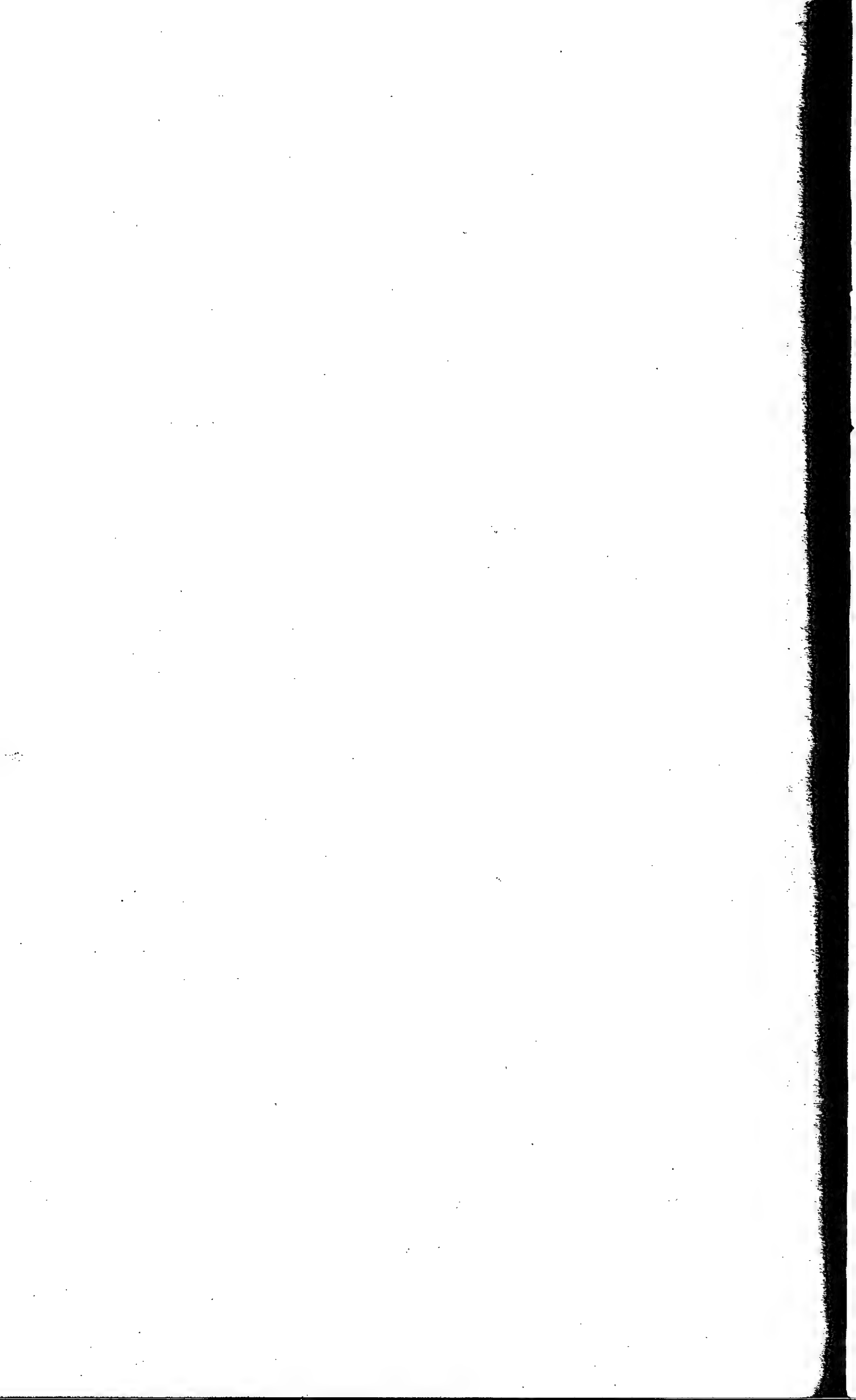
(1) في 30 أوت (1845) غادر « بارت » المغرب نحو اسبانيا ثانية ومنها تحوّل إلى الجزائر .

(2) المقصود هي آلة تصوير فوتوغرافي حسب طريقة « **Daguerrtype** » التي طوّرها الفرنسي **Daguerre** في سنة 1837 .

(3) اهتم بارت بتعلّم العربيّة منذ صباه ثمّ أنه انتهز فرصة اقامته بلندن في بداية 1845 ليتعاطى دروسا خاصة في هذه اللّغة .

(4) يتذكر أحد مترجمي بارت أن رحلته هذه حول البحر الأبيض المتوسط استنفدت 000 14 « تالر » بينما لم تخصص لرحلته الموالية إلى افريقيا سوى 000 10 « تالر » علما بأنها كانت على حساب انكلترا (انظر : **W. Koner, Heinrich Barth, in Zeitschrift für Allgemeine Erdkunde Berlin 1866, P 21**)

(5) ليس هناك إمضاء في ذيل الرّسالة .



الرّسالة الثانية

تونس في 26 نوفمبر 1845

وكما ترون ، فقد تقدّمت شوطا آخر إلى الأمام وطويت بضعة أميال إضافية في اتّجاه الشّرق ، وتنقّلت من قطر بربري صار نصفه تقريبا مطبوعا بالطّابع الأوروبي ، إلى آخر مازال مستقلاّ ، لكنه شرع بعد في اقحام الشّكليات الفرنسيّة في حياته الشرقية التي أخذت تدريجيا تفقد خصائصها وميزاتها [1] . والأهم ، هو أني الآن مقيم مباشرة بجوار آثار قرطاجنّة ، تلك المدينة التي كانت سالفا تسيطر بأساطيلها على كامل البحر الأبيض المتوسّط ، وتتحدّى الاغريق والرّومان .

لقد فرغت بعد من التّجوال بين بقاياها الأثريّة المبعثرة هنا وهناك ، ساعيا بمخيّلتي إلى إعادة الحياة إلى كامل رقعة هذه المدينة البحريّة العظيمة ، بمرافئها وأسوارها . إن القطر بأسره مفروش بأنقاض المدينة الشّهيرة وفي نيّتي الشّروع عاجلا في جوب قسم هام منه .

أمّا عن تونس نفسها فهي مدينة كبيرة تضاهي في عدد سكّانها مدينتنا « همبورغ » وتختلف عنها الكثير فيما عدا ذلك ، فالأنهج تكاد تكون كلّها ضّيقة وملتويّة تعترضك فيها العديد من الجيف العفنة . أمّا ديارها فهي لا تتركّب في جلّها إلا من طابق أرضيّ فقط ، ولها سقوف منبسطة . وفضلا عن هذا ، تقع المدينة على ضفّة بحيرة كبيرة تخالها مستنقعا . فقد كانت سالفا مرفأ ممتازا ، بينما هي اليوم قليلة العمق و[...] [2] ترتبط بالبحر بواسطة قنال . وعلاوة على مجمل الحركة والنّشاط ، ليس هناك بالمدينة إلا القليل ممّا يلفت الانتباه . أمّا الأحواز القريبة فهي مقفرة وعديمة الأهمية ومع هذا فهي تستقطب كل اهتمامي بالنسبة إلى جولاتي ، لا سيّما أن الطّقس السّائد حاليّا هو طقس جميل مناسب .

تونس في 30 [نوفمبر 1845]

في هذه الآونة عدت من جولة في زغوان دامت ثلاثة أيّام . وهي بلدة على بعد حوالي 9 أميال جنوب تونس ، تقع في سفح صخرة ناتئة تتدفّق منها أعذب المياه . ولقد اكتشف الرّومان ، أو ربما القرطاجنّيون من قبلهم ، هذا النّبع الغزير فشيّدوا في موضع ملاصق لسفح الصّخرة ، معبدا كبيرا لآلهة هذا النّبع ، لا يزال قائما في معظمه ، وبواسطة مجرى لا تزال بقاياه راسخة إلى يومنا هذا أوصلوا المياه على طول هذه المسافة الهائلة إلى مدينة قرطاجنّة العملاقة نظرا لاحتياجها إلى ما يفي باستهلاكها المائي ؛ ووجد العرب عند غزوهم البلاد هذا المجرى قائما ، فرمّموا ما استوجب ترميمه ، واعتبروه إحدى عجائب الدّنيا العظيمة [3] . وهو حقّا لعجيب وعظيم . أما البلدة ذاتها فهي تتوسّط منظرا خلّابا على منحدر جبل ، وهي تلوح من بعيد بمنازلها ومساجدها البيضاء من خلال غابة الزّيتون الصّغيرة التي تكوّن سورا لها . وهناك قضّيت ليلتين في الفندق ولم يكلّفني مبيتي ومبيت السّائس ودابّتيه أكثر من ستّة « شيلينغ » تقريبا . بيد أنه لم تتوفّر لي الكثير من أسباب الرّفاه فقد نمت على حصير فوق الأرض مباشرة واقتت مما جلبت معي من تونس من زاد متواضع [4] . لقد تراءى لي من أعلى الجبل الذي تسلقته ببالغ العناء والمشقة منظر شامل للأرض المحيطة والبحر .

سأقصد غدا موقع « أوتيكا » العتيقة ، التي أضحت اليوم آثارها للأسف مطمورة بسبب الأوحال التي جرّها نهر « مجردة » من داخل البلاد . وسوف أرحل بعد غد عن تونس للنّزول إلى صفاقس عبر أشهر الأماكن كالحمّامات وسوسة والقيروان . وإذا سنحت لي الفرصة فسوف أبحر من صفاقس نحو مالطا ، وإلا فسوف أتمادى نحو سبيطلة في داخل البلاد ثم قابس على ساحل البحر . وهناك اعتراض في التّرخيص لي بالسّفر برّا إلى طرابلس لخطورة الطّريق المؤدّية إلى هناك ؛ وكم بودّي لو يرخّص لي في ذلك ، نظرا لأهمية المنطقة التي تكاد تكون مجهولة ، إذ لم يجبها أي رحالة [أروبي] لخطورتها

بالذّات . ها أنتم تعلمون الآن أين أنا وفي أيّة حال أعيش ، فلنمرّ في الحين إلى الحديث عن رحلتي من بجاية إلى تونس . في بجاية ، هذه المدينة الهامّة بفضل موقعها وتاريخها ، تحتّم عليّ بعد أن كتبت لكم رسالتي منها — أن أنتظر خمسة أيّام إضافيّة ، أبحرت في نهايتها ليلا على متن سفينة ، وحتى لا يحدث لي ما وقع من قبل ، استعرضت ما مررنا به من مواضع هامّة ، « كجيجل » التي كانت تتمتّع بمكانة عظيمة في عهد الرّومان والتي كان القرصانان المهيبان « عروج » و« خير الدين » أول من اختارها فيما بعد قاعدة لعملياتهما؛ ثم « كولو » الواقعة داخل الخليج، والتي لم يتمركز فيها الفرنسيون بعد .

وفي مساء اليوم الموالي نزلت « بفيليبفيل » وهي مدينة شيّدت من جديد من العدم ، على أنقاض مدينة رومانيّة ، وها هي الآن تحضى بمكانة مرموقة بوصفها ميناء قسنطينة ، وفي واقع الحال يوجد ميناؤها على بعد سويعة من مكان مقابل يسمّى «صتورا » . لقد تفحّصت كامل المنطقة طولا وعرضا وصعدت بعض جبالها ، وبعد أن أتممت معاينتي للمكان ، سلكت الطريق صوب قسنطينة . وخلال سيري فاجأني حادث كاد يكون خطيرا [(5)] . وتكمن أهميّة قسنطينة في كونها عاصمة الملوك النوميديين في سالف الدّهر ثمّ تحوّلت إلى مدينة رومانيّة كبيرة . ولقد تبقّت من هذه الفترة آثار وافرة، لكنها عديمة الأهميّة ، باستثناء بضع حنايا شاهقة من أنقاض مجرى المياه . غير أنّها تمتاز خصوصا بموقعها الفريد من نوعه ، إذ أنها تقوم فوق صخرة وتحتلّ سطحها لأقصى الحافّة ؛ ويحيط بهذه الصّخرة من ثلاث نواح نهر « الرّمال » الذي يسيل في العمق عبر شعب ضيّق . وهي مدينة ذات طابع عربيّ بحت ، أنهجها ضيّقة وملتويّة ، تعجّ بالتّجارة والنّشاط وتفد عليها يوميّا القوافل الآتية من داخل افريقيا . هذا كل ما هو جدير بالذكر . أما الأحواز فهي كثيرة الهضاب بادىء الأمر ، جرداء لا شجرة فيها بعد ذلك .

ولكن هناك في إحدى نواحي المدينة شعب صغير ذو صبغة رومنطيقية

أصيلة ينحدر فيه النّهر الصّغير في شكل شلاّلات . وكم تشوّقت أن أواصل السّير وأزيد في التّغلغل نحو الجنوب ، رغم أن ذلك يمثّل خروجا عن خطّة سفري الأصليّة . ولكني عدلت عن الفكرة لضيق ذات اليد في تلك السّاعة ، وتوجّهت قبلة عنّابة رفقة اثنين من الفرنسيين ، أحدهما من « ريو » [دي جنيرو ؟] وصديق لـ . « ترمين » . وبلغنا مأربنا بعد ثلاثة أيّام ونصف ، مررنا خلالها بآثار العديد من المدن الرّومانية وبحمّامات « مسكوتين » الكبريتيّة العجيبة للغاية ، وعلى مدينة « قلما » الحديثة العهد . تقوم عنّابة على بقايا مدينة « أبّو » العظيمة التي أصبحت فيما بعد تسمّى « هيبّو » ، وهي تحتلّ في مصبّ واد « سيبوس » موقعا رائعا يفتح على الغرب ، حيث نجد على مسافة ساعة فرعا من سلسلة جبال ، يمتدّ من الجنوب على طول ساحل البحر ؛ أما مرسى عنّابة فهو رديء . لقد كنت من هنا أنوي الذهاب إلى تونس برّا . غير أنّه صادف أن تعرّض ساعي البريد الفرنسي قبل أيّام قليلة إلى عمليّة سطو ونهب ما كان معه ، فلم أضع الفرصة التي أتاحتها لي سفينة بخاريّة فرنسيّة نقلت المراسلات بحرا ، لما في ذلك من ضمان . وقد دفعتنا رياح قويّة طوال السّواحل التّونسيّة . أمّا بقية الأحداث فإنّكم تعرفونها .

في مثل هذه الأسفار يغفل المرء عادة عن كلّ الشّؤون المنزليّة ، وهكذا فقد كدت أنسى تماما عيد ميلاد المسيح ، وهي الفترة التي ربّما تتلقّون فيها هذا الخطاب . وبهاته المناسبة أوجّه إليكم جميعا أحرّ الأماني والسّلام ، وليس هناك ما يؤسفني سوى عدم وجودي بينكم . فبقدر ما تكونون سعداء بقدر ما يسرّني ذلك . وإذا تذكّرت فسوف أحتفل بهذا العيد ، خصوصا إذا كنت موجودا بمالطا ، وهو أمر متوقّع أما إذا وجدت نفسي متمدّدا على حصير حذو بغالي ، ووسط عرب وبرابرة فسوف أكتفي بالتّفكير فيكم من عميق فؤادي . لو كان معي مال أوفر لبعثت لكم بعضا من المنتوجات التّونسية التي تتمتّع بسمعة طيّبة ، أو علبة تمر ، لكن عليّ أن أقتصد ، لأنّي لا أريد الذّهاب فورا إلى مالطا حتى لا أربك مخطّط سفري . إذا توفّر لي

الوقت فسوف أكاتب أفراد العائلة فردا فردا ، وإلّا فإليهم جميعا أهدي السّلام والأماني ؛ إذا وصلتني منهم رسائل إلى مالطا ، فسوف أردّ عليهم بالمثل ، أمّا الآن فالوقت ضيّق بالنّسبة إليّ . وأخيرا أخلص السّلام إلى كلّ الأحباب .

ابنكم هينريش

(1) يلمّح بارت هنا أولا وبالذات إلى التّغييرات في المظاهر العسكرية التي امتاز بها عهد أحمد باي ، إذ نجده في مطلع سرده لاقامته بتونس يقول : « يا لقبح مشهد الكيان العسكري الذي أخذ ينمو هنا بتزايد ملحوظ والذي خلع لباسه البديع وغدا يتصنّع الحضارة الأوروبية والانضباط الأوروبي بسترات وسراويل أروبية أخرجته في مظهر يبعث على الأسى » (انظر : **Barth, Wanderungen** ص 72) .

(2) كثيرا ما يستشهد بارت في رحلته بكتب الرّحالة والجغرافيين العرب كالادريسي وابن حوقل ، وخصوصا أبي عبيد الله البكري .

(4) يذكر بارت في رحلته أنّه حاول بدون جدوى نيل طعام من الأهالي مقابل مال .

(5) تمثّل هذا الحادث في انكسار العربة التي كانت تقلّ بارت بينما كانت تسرع في السّير على منحدر جبل .

الرسالة الثالثة

الحمامات في 16 ديسمبر 1845

سيدي المحترم [1] ،

في هذا المكان ، بينما أنا أستمتع بالفوائد التي عادت عليّ بها رسائلكم ، يطيب لي أن أتذكّركم وأتذكّر واجباتي نحوكم . وها أنا أستعمل أوّل طاولة تعترضني خلال جولتي هذه عبر هذا القطر البربري ، لأوافيكم ببعض الأخبار التي من شأنها أن تبرهن لكم كيف أني لم أسيء استغلال وقتي ولم أهمل توصياتكم .

عدت إلى افريقيا آت من مدينة « ألكانتي » بعد أن أتممت زيارة آخر جزء من السّاحل الاسباني ، خصوصا بعد أن عرّجت على غرناطة الخلاّبة وتطلّعت مليّا على ميناء قرطاجنة الهام ، الذي هو حاليّا في تدهور ميؤوس منه . ولقد جبت في ظرف شهرين السّاحل الجزائري بأسره وتوغلت في بعض الجهات داخل البلاد ، رغم أن الفترة لم تكن ملائمة بسبب عودة نشوب المقاومة التّحريريّة في كامل أرجاء القطر . ومن بين الأماكن التي استقطبت اهتمامي بالخصوص أذكر مدينة « شرشل » ، أو « قيصرية » كما كانت تسمّى في القدم ، حينما كانت مدينة عظيمة . ولقد اعتبر العرب سالفا آثارها أعجوبة من أعاجيب الدّنيا . وهي اليوم تتحوّل إلى مدينة ذات بال ، بفضل المعمّرين الألمان ، ولكن أيضا بفضل مشروع ترميم المرفأ الروماني القديم وتوسيعه ، رغم أن الأشغال تسير ببطء . وهنا شاهدت سفينة رومانية صغيرة موؤودة في التّراب منذ قرون . ومن هذه الأماكن أيضا بجاية

التي تشكو حاليًا من إهمال الفرنسيين المفرط . وفي هذا المكان الذي امتاز بمرفئه الرّفيع أقمت مكرها عشرة أيام لأني لم أجد أيّة وسيلة لمواصلة الرّحيل برّا أو بحرا . وقد جلب انتباهي أيضا مرسى سطيف الطّبيعي ، الذي يأوي آثارا رومانية قيّمة ، وأخرى أسمى وأرقى ، تعود إلى العهد العربي ، أي القرن الحادي عشر ، حينما أوشكت هذه المدينة على أن تكون أكثر مدن المغرب ازدهارا وحضارة .

بصرف النّظر عن الأخطاء الفادحة التي يرتكبها الفرنسيّون في طريقة تطبيق الاستعمار ، أعتقد أن هذا القطر البديع يسير نحو مستقبل راق . وأستغرب من قلة نزوح المهاجرين الألمان إلى هنا ، لا سيّما وأن الملكية مضمونة ، رغم كل الانتفاضات والانفصالات الظّرفية . وتقام حاليًا حول مدينة الجزائر تحصينات منيعة ، وذلك في الأرجح توقّيا من الأنكليز أكثر من أن تكون تخوّفا من العرب . وقد لاحظت على الاجمال حركة غير عاديّة تسود الجزائر . ولقد حضيت هنا بعناية السيد « ريكين » الفائقة لكنه بالطّبع لم يكن بوسعه تعميدي لدى السّلط [الفرنسية] . لكن الأمر اختلف تماما في مدينة تونس حيث لاقيت في شخص الـ « سير » توماس ريد [2] خير نائب . ولقد سمعت عن العديد من الأروبيين المقيمين بتونس أن نفوذه يفوق نفوذ الباي نفسه . فبفضل توصياته لدى الباي ، ألفيتني أستقبل في كلّ مدينة أحلّ بها في هذه البلاد بحفاوة أوشكت أن تكون جديرة بالأمراء ، فأنزل بالمساكن التي هي على ذمّة الباي ، حيث يلتزم شيخ المكان بتضييفي ويجتهد وكلاؤه في خدمتي ، كما أن جنودي الثلاثة ــ ولو أني في الحقيقة أمنحهم أجرا ــ يمكّنونني من دخول أي مكان ما عدا المساجد . لهذا يسود في اعتقادي أن رحلتي طول هذه السّواحل البالغة الأهمية سوف تفضي بلا ريب إلى استنتاجات جديدة وكبيرة الفائدة . ولحدّ السّاعة ، وبعد أن اتبعت كامل الطريق الساحلية الفاصلة بين أوتيكا والحمامات ، توصلت إلى استدراك بعض ما ورد في الرّحلات القديمة من نقائص فادحة . وعلاوة على المدن السّاحلية سمح لي كذلك بزيارة القيروان ، التي لم تفتح أبوابها إلا أمام القليل

النّادر من المسيحيين ، ولسوف أعرّج كذلك على بعض الأماكن الأخرى داخل البلاد ورغم أن أمر الباي الذي هو في جوزتي الآن يتوقف مقتضاه على مدينة صفاقس ، التي سوف أبحر منها لزيارة مالطا ، فإنّي آمل أن يتيسّر لي بعد عودتي مواصلة السّير برّا للاطّلاع على كامل الرّقعة السّاحليّة حتّى مدينة طرابلس .

على فكرة ، فإن البلاد في حالة يرثى لها من التّعاسة بسبب التّكالب الجنوني للباي على تجهيز جيش عظيم على النّمط الفرنسي . هناك قرى بأسرها غدت خالية من أهلها [3] ، وحقولا كانت تنتج التّبغ أضحت جدباء منذ أن صار هذا المنتوج يخضع لقانون الاحتكار ، وهناك مراسي لا يستهان بها شلّت حركتها ؛ ولعل ما يزيدك حسرة هو آن الشّعب هنا يمتاز كل الامتيَاز عن شعوب المغرب والجزائر، فهو مسالم ولطيف . لو أن رحلتي لم تستهدف في منطلقها رقعة شاسعة ولو أني لم أتقيّد بالخصوص بالدّائرة السّاحلية لكنت أزمعت على جوب هذا القطر بكامل أرجائه لاعطاء صورة إجماليّة عن ازدهاره الغابر الذي يكاد لا يصدّق ، وذلك بالاعتماد على ما حوى من آثار لازالت إلى يومنا هذا شبه مجهولة ، ولابراز ما في وسعه أن يكون وما يتحتّم أن يكون .

وعلى كلّ حال فأنا بصدد الاطّلاع على جزء هامّ منه ليس بأدنى أجزائه قيمة . وفيما يتعلّق بما تبقّى ، بوسعي على الأقل أن أستوفي معلومات دقيقة لحدّ ما . والفضل في كل ما أشاهد وأكتشف يعود في معظمه إليكم ثمّ إلى « كلكهون » [4] والـ « سير توماس [ريد] » إذ أنّه يستحيل السّفر في بلد كهذا بدون رسائل [توصية] . ليت الأمور تسير على هذا المنوال في طرابلس والأقطار الأخرى . أعلمكم بين قوسين بأن الأنكليزي « ريتشارد سون » [5] ، من مالطا ، ينوي حاليا قطع المسافة بين غمراسن وتنبكتو .

إليكم وإلى عائلتكم أحرّ الأماني من :   **د . هـ . بارت**

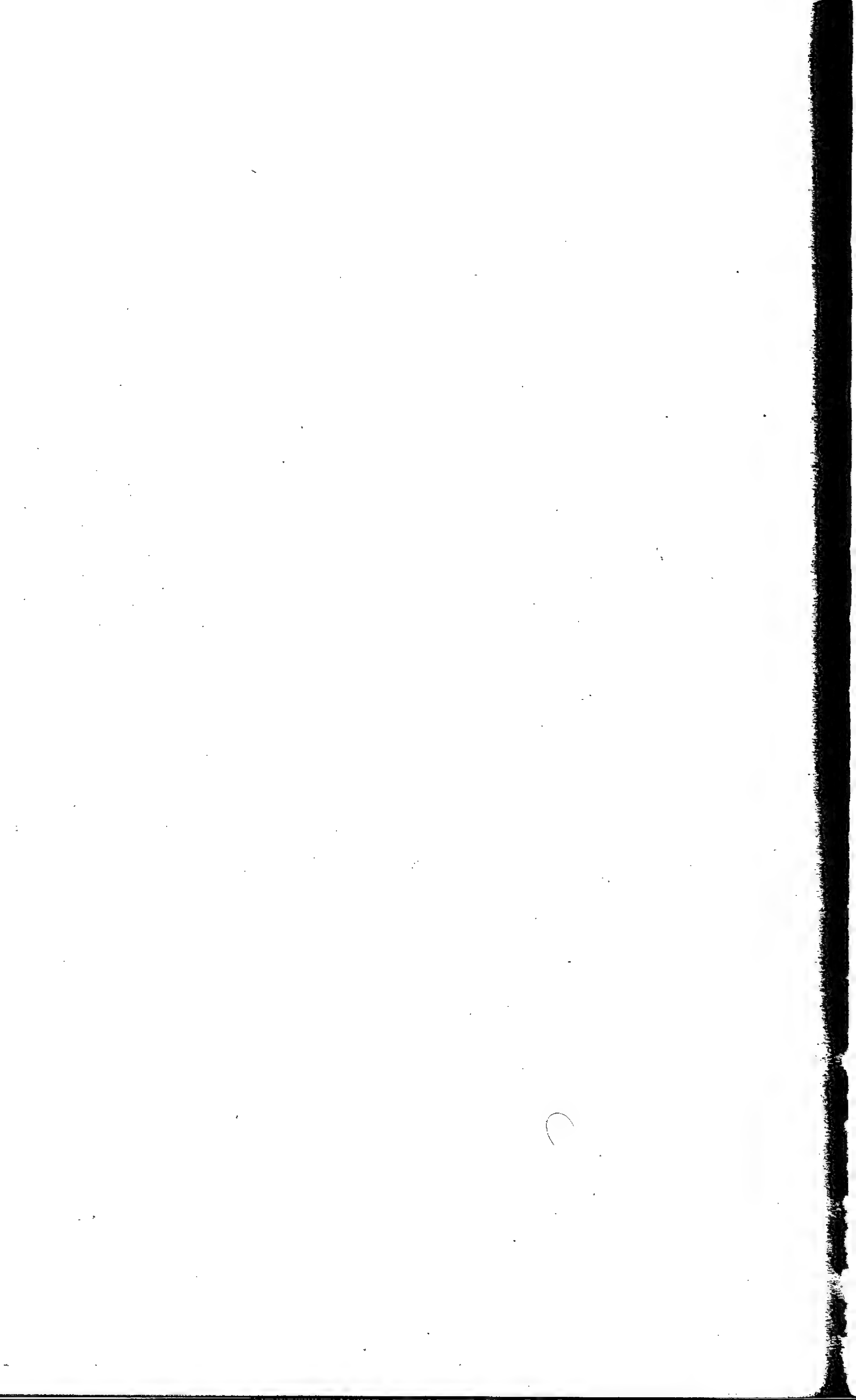
(1) المعنى هو كارل سيفكينغ (Karl Sieveking) أحد أعيان دولة همبورغ في ذلك الحين . وقد أفاد بارت في رحلته هذه بأنه مهد له السبيل للتمكن من مساندة السلط البريطانية ويبدو أنه أوعز إلى الرحالة الشاب أن يمده بمعلومات يترجّى منها الفائدة لتجارة همبورغ، إذ نجد بارت في رسالة ثانية وجهها إليه من « مصر » (بتاريخ 9 جويلية 1846) يسهب في هذا الموضوع ، ويذكر تونس بقوله : « وفي هذا المضمار [التجاري] يبدو لي أن تونس تعلو حاليا طرابلس شأنا لأن لديها أكثر مواد للتصدير ولأن سوقها أكثر تقبلا للواردات ، بيد أن نصيبها من تجارة القوافل تدهور ولازال يتدهور أكثر وأكثر من جراء احتلال الجزائر من طرف الفرنسيين الذين أوشكوا أن يوصدوا باب التوريد كما أنهم صاروا يعملون على جذب القوافل الآتية من داخل افريقيا اليهم . أما مرفأ تونس فهو ليس بالحسن بتاتا » .

(2) هو Thomas Reade الذي تقلّد مهام قنصل بريطانيا العام بتونس من أفريل 1825 إلى مماته في جويلية 1849 . وقد عمل قبل مجيئه إلى تونس كمساعد للعقيد هودسون لوف بجزيرة « سانتا هيلينا » أثناء منفى نابليون الأول . وعرف أثناء إقامته بتونس بولعه بجمع التحف الأثرية وارسالها إلى متاحف بلاده والمعروف أيضا أن ريد كان يسكن بقصر العبدلية بالمرسى .

(3) لا شك أن بارت يستند هنا على ما لاحظه في بلدة سليمان وخصوصا على الفاجعة التي اعترضته في قرية المعمورة حين وجدها خالية من أهلها لأن جور أحد جنود الباي أدّى بهم إلى اغتياله ففروا فزعين خشية نقمة الباي (انظر : Wanderungen ص 140) .

(4) المعنى هو James Colquhoun الذي كان عضوا بالجمعية الملكية للجغرافيين بلندن والذي فتح لبارت أبواب القناصل الأنكليز .

(5) أي الرحالة الانكليزي James Richardson . وقد عيّن فيما بعد رئيسا للبعثة الاستكشافية إلى افريقيا الوسطى التي شارك فيها بارت . وقد لقي حتفه خلالها .



الرسالة الرابعة

سوسة في 21 ديسمبر 1845

أبي العزيز ، أهديك من هذه المدينة أيضا أحرّ السّلام ، هذه المدينة الصّغيرة الجميلة التي تعانق البحر الأزرق البديع وهي تتراءى لي من خلال الغرفة التي أقيم بها بقصر الباي في القصبة ، هذه البناية الشّامخة المطلّة بشرفاتها وأبراجها البيضاء على المدينة المفترشة في سفحها ، وعلى غابات الزّيتون النّضرة التي تطوّق بالمدينة من خلف والتي تبرز من خلالها قباب بيضاء هي قباب الأولياء الصّالحين . وإذا صوّبنا النّظر يسارا أبصرنا ساحل البحر ولاحت لنا في أقصاه مدينة المنستير . وسوسة هذه مدينة عريقة شهيرة تحتوي الكثير من الآثار القديمة وتزخر بتاريخ حافل . وألفيتني هكذا أتنقّل يوما بعد يوم من مدينة هامّة إلى أخرى ، وقد وصلت يوم أمس إلى هنا قادما من مدينة القيروان المقدّسة ، حيث المسجد العجيب ذو الخمسمائة سارية ، كلها من الرّخام الأحمر والأسود . والقيروان هي مدينة سيدي عقبة ، ذلك المجاهد النّبيل الذي ركز السيّادة العربيّة بإفريقية، والذي سقط بالزّاب بمعية خمسة آلاف من رجاله، وهو يواجه مائة ألف من الأعداء . وسرت في طريقي إليها عبر سهل الحمّامات الرّحب ، مارّا في البداية بآثار مدن عظيمة ، وبعد ليلة قضّيتها في ضيافة البدو ، عبرت مساحات قاحلة . وأنا إذ أتنعّم بكلّ هذا فالفضل في ذلك يعود إليك يا أبتي ، أنت الذي ضحّيت براحتك ونومك من أجلي لكي تخوّل لي استكشاف هذه البقاع كما أشاء . وها أنتم الآن بمفردكم ، بمنأى عنّي ومحرومون من الأنس الذي ربّما كان يوفره حضوري بينكم ، وتمرّ عليكم ليالي الشّتاء الطّويلة ، فلا تجدونني بينكم لأقرأ عليكم بعض الكتب أو لأسرد على مسمعكم بعض الأحاديث . ولعلكم في هذه الآونة تفكرون فيّ ، وتتساءلون عن مقامي وصنيعي الآن .

إني هنا في قارة أخرى وتحت سماء آخر وبين أناس آخرين ، في عزلة تامّة ، بعيدا عن أي قريب ، ومع ذلك فأنا غالبا في أسعد حال ، أنعم بالغبطة والمسرّة بين صحبي من العرب وأستمتع برؤية السّماء العذبة والنّخيل البديع والصومعات الرّشيقة . وفي هذه البقاع بالذّات سوف أقضي ليلة مولد المسيح . وسوف لن أحتفل به هذه المرة في كنف العائلة العزيزة ، حول مائدة مثقّلة بالهدايا الثّمينة ، بل بالمهدية العتيقة والشهيرة ، رفقة صحبي من المماليك ، حول آنية ضخمة أغترف منها « الكسكسي » لكنّي أعدكم أنّي سوف أذكركم وسوف أهمس لكم أخلص التّهاني وأزكاها . كم مضى الآن من الوقت منذ انقطعت عنّي أخباركم ؟ أرجو أن أجد بمالطا حزمة من رسائلكم ! فمنذ الثّاني من شهر أكتوبر ـ لمّا كنت في الجزائر ـ لم أقرأ لكم سطراً واحدا . وها هي السّنة الجديدة على الأبواب وأنا مازلت لم أسافر إلى مالطا ، حيث لن أمكث طويلا بل سوف أعود في أقرب الآجال إلى بلاد البربر حيث طابت لي الإقامة كثيرا .

لقد مرّت عليّ لحدّ الآن ثلاثة عشر يوما منذ فارقت مدينة تونس . وقد لازمت في البداية الطّريق السّاحلي ثم طفت طولا وعرضا ، فاطّلعت بذلك على قسم لا يستهان به من هذا القطر . إنه قطر رائع ، لكنّه يخضع منذ قرون لحكم مطلق مستبدّ ، فأضحت أخصب المناطق جدباء وخرّبت الدّيار وابتزّت أرزاق الأهالي . أمّا أنا فإني أتجوّل هنا في تمام الرّفاه ، وأقيم وأقتات على نفقة الباي ، وأجد أينما حللت رجالا رهن إشارتي ، وبوسعي أن أجوب البلاد بأسرها بكلّ راحة وأن أطّلع عليها بكامل الدّقّة .

ليس في مقدوري الآن أن أوافيكم بتفاصيل مضبوطة فيما يتعلّق بوجهة رحيلي المقبل . لكن على كلّ حال ابعثوا إليّ أكداسا من الرّسائل إلى مالطا بعنوان « جامس بال » وسوف أعطي تعليمات لتحويلها إليّ ، ولا تنسوا أن تزودوني بأخبار كل من أعرف . وأنا لا أناشدكم شيئا آخر سوى أن تحافظوا جيّدا على كتبي . فكم كان بودّي لو كانت لي منها الأكوام هنا ، ولا أنكر أني فكّرت فعلا أن أحملها معي لكن لا بأس ، فسوف أشتري من

مالطا مكتبات بأسرها ، أعني كلّ ما ألاقي من كتب قيّمة تهمّ هذه البلدان . إن الأمسيات هنا طويلة وللمرء متّسع من الوقت للمطالعة والدّراسة ، تماما كما لو كنت في بيتنا .

كونوا مطمئنّين على سلامتي فإنّي أحمل الآن ، إلى جانب ما معي من السّلاح ، بندقيّة ممتازة ذات طلقتين ، وسوف أستعملها عن قريب لكسب قوتي بنفسي .

أودّعكم الآن وأرجو أن تكونوا في أتمّ الهناء والسّرور . ولا تغضبوا عليّ بالرّغم من أنّي أستحق ذلك ، وبادلوني ما أحمله لكم من المحبّة .

ابنكم هاينريش

الرّسالة الخامسة

صفاقس في غرة جانفي 1846

إنّني فعلا وكما ترون ، لم أقض فوق التّراب الافريقي ليلة مولد المسيح فحسب ، بل كذلك ليلة رأس السّنة . في ليلة المولد وجدت نفسي ببلدة صغيرة تدعى « بقالطة » [1] ملقى على حصير ، أنتظر بفارغ الصّبر صحن « الكسكسي » وقد اشتدّ بي الجوع . وبينما كنتم تتقبّلون الهدايا ، كنت بالمهدية أفكّر فيكم ببالغ الشّوق ، والحنين . والمهدية مدينة عربيّة عريقة ، ذائعة الصّيت ، تقع على شبه جزيرة ، فتبدو كأنّها جزيرة كاملة ، بفضل الآثار الرّائعة المهيبة المحيطة بها والمتبقّية من سور عجيب عظيم كان قد نسف بأمر من القيصر شارل [كان] الذي فشل في السّيطرة على هذه المدينة بعد أن استولى عليها . وهي اليوم بلدة صغيرة تعدّ حوالي سبعمائة أو ثمانمائة دار ، ولها تجارة لا تخلو من بعض الأهمية .

منذ الأمس أوجد بصفاقس وهي مدينة ذات حركة لا يستهان بها، تزخر بغابات الزّياتين الكبيرة المترامية الأطراف، وقد نزلت هنا في ضيافة القائد[2] الذي أفسح لي ببيته البهيج غرفة توحي في مجملها بغرف قصر الحمراء بغرناطة، لا عيب فيها سوى أنها أصلح لسكنى الصيّف منها لاقامة الشتاء . وها أنا الآن في هذا المساء، جالس داخلها، أحدق عبر الباب المفتوح في الفناء المطوّق بالأعمدة القصيرة والنّوافذ الصّغيرة ذات الشبّابيك الجميلة الزّخرفة . وفي الآن نفسه أدوّن لكم ، يا أحبائي ما عشته وما لاقيته .

غادرت مدينة سوسة الجميلة في الثّاني والعشرين [من ديسمبر] بعد أن سلّمت شخصيّا [نائب] القنصل خمس رسائل ، بعضها إليكم ، والبعض الآخر لسواكم ، ثم اتّجهت راكبا ، متّبعا ضفّة الخليج صوب المنستير التي تقع في رأس ، والتي تراءت إليّ بكامل الوضوح منذ سوسة ، بأسوارها وصومعاتها البيضاء . وبعد أن تركنا وراءنا سبخة قاحلة ، ـــ حاليّا جافّة ـــ لم تنم على ضفافها الرّملية من ناحية البحر سوى مجموعات من أشجار النخيل التي قطفنا منها نصيبا من التّمر لما مررنا بها ، استقبلتنا بساتين المنستير البديعة الحلوة ، المغروسة زيتونا وتينا . ومن خلال هذا المحيط الأخضر البهيج لاحت لنا بغتة شرفات المدينة البيضاء . وإثر وصولي نزلت مبجّلا ، مكرّما في قصر الباي ، وأغدقت عليّ الأكلات العربيّة الفاخرة .

ولقد لاقيت هنا وفي كل مكان ، على الشّاطىء وفوق الجزر الصغيرة المقابلة ، آثارا تشي بعمران يعود إلى أقدم العصور ، وعكفت على رسمها بكلّ دقّة .

في اليوم الرّابع والعشرين [من ديسمبر] غادرت هذا المكان ، وواصلت السّير طولا وعرضا ، مارّا بعديد البقاع الصّغيرة ، بعضها أثريّ ذو شهرة ، حتّى بلغت « البقالطة » . وما كنا لنحصل هنا على مأوى لقضاء اللّيلة إلا بعد جهد وعناء [3] .

كما ذكرت آنفا ، قضّيت هنا ليلة مولد المسيح رفقة أتباعي من العرب ، وتابعت في اليوم الموالي رحلتي معرّجا على مواضع أثرية هامة أخرى ، تقع برأس ديماس ، إلى أن دخلت المهدية حيث بقيت حتى يوم 26 . ومن الغد سلكت طريق الجم وعبرت في البداية غابات الزّياتين ، ثم سهلا فسيحا ـــ مقفر حاليا ـــ حتى لاح لنا من بعيد وعلى مسافة ساعتين مسرح الجم العظيم البنيان ، الرّفيع الهندسة ، فاشتغلت بعد الظهر بأكمله وصباح اليوم الموالي بقيس هذا المعلم الأثري . وفي يوم 28 اتجهت من جديد صوب البحر جنوبا ونمت « بقصور الساف » ثم واصلت السّير ، مارّا بآثار

ءميرة ، نحو بلدة صغيرة تدعى « الشابة » تقع قرب « رأس كبودية » .
ومن هنا انطلقت من جديد في الساعة الثانية والنصف من اللّيلة الفاصلة بين 29 و30 ديسمبر وبعد أن قطعت حوالي اثنى عشر من الأميال الألمانية [4] حللت في السّاعة الثّانية بعد الزّوال بصفاقس حيث استقبلت أحسن استقبال .
وقد نشأت بيني وبين القائد صداقة وثيقة ، فبعث إلي قبل هنيهة سلّة عظيمة مملوئة بأشهى المرطّبات وألذّ الحلويّات ، مقابل هديّة قدّمتها له . وكم كان بودّي أن أرسل إلى السيّدة « مولار » نصيبا منها ، لو لا بعد المسافة .
وكما ترون ، فلديّ الآن ما يكفيني من الحلويّات لقضاء أيّام العيد . ولسوف أسير عائدا إلى تؤنس دون خشية أيّ نقص ، بفضل المؤونة الأخرى التي أغدقها عليّ القائد .

لقد نويت طيّ المسافة إلى تونس في ظرف أربعة أيام باتّباع أقصر طريق، فقد عدلت عن فكرة السّفر إلى مالطا من هنا ، لأنه ربّما يمرّ شهر بأسره دون أن أجد سفينة متجهة إلى هناك . ثم إن الاعتماد المالي « الباريزي » الذي معي ، ما انفك يحرجني لأنني لم أحصل على صرف مطابق للرّصيد الحقيقي . لكنّني مازلت عازما على مزيد الاطّلاع على هذا القطر ، إذ أني سوف أركب إن شاء « الله » [هكذا] إلى مالطا من تونس ثم أعود دون تأخّر ومعي ما أحتاج من آلات . وسوف أشتري بغلين لأباشر رفقة بعض الحرّاس ومحمّلا برسالة دعم شاملة النّفوذ من الباي ، رحلة عبر هذا البلد بطوله وعرضه ، حتّى أصل طرابلس . ولا شك أن ذلك سوف يكلّفني الكثير من المال ويتطلّب منّي الكثير من الوقت ، لكن من ناحية أخرى سوف أتمكن من وضع وصف دقيق لتاريخ وجغرافية هذا القطر الذي لا يعرف عنه إلى حد الآن إلاّ القليل التّافه ، والذي كان يحضى قديما بأهميّة قصوى ، ومن يدري لعله سوف يبرز من جديد ليعلب دورا أكثر أهمية من الآن ! وسوف يكسبني هذا الوضع شهرة ، ويدر عليّ ما يغطي تكاليف رحلتي .

سوف أمدك بمزيد التّفاصيل في رسالة قادمة ، ريثما أستلم بمالطا

رسائلكم التي طال انتظاري لها . لكنّي أرجو أني لم أفوّت أي شيء من أخباركم والله أعلم بحالكم وبحال الدّنيا ، فأنا أجهل كل هذا .

مالطا ، بمصحة الميناء ، في 19 [جانفي 1846]

ها أنا أخيرا بهذه الجزر ، الصّغير حجمها والبالغة أهمّيتها منذ آلاف السّنين ، والتي تحتلّ بموقعها قلب البحر الأبيض المتوسّط ، هذا البحر الرّائع الذي تشكّل ضفافه بشوارمها وخلجانها وشعابها محور دراستي .

أخيرا وصلت إلى هنا قبل الأمس ، قادما من تونس ، إثر سفرة مملّة ولكنّها مضطربة جدّا ، دامت خمسة أيّام وخمس ليال . رغم ذلك مازلت لم أدخل المدينة إلى الآن ، بل عليّ أوّلا أن أقضي فترة الحجر الصّحي . لهذا الغرض تراني حاليّا نزيل مصحّة الميناء المجهّزة أحسن تجهير ، رفقة شابّ من مواطنّي البلاد ، كان له عليّ فضل كبير في التّعرف على الجزيرة خلال فترة وجيزة . تمكّنت الآن من استكشاف مرافيء مالطا الفريدة من نوعها ، ذلك لأنه تعذّر علينا مساء السّبت ولوج الميناء الذي توجد به مصحّة الحجر ، بسبب الرّياح المعاكسة والتيّار الجارف ، فتحتّم علينا أوّلا الالتجاء إلى الميناء الكبير الذي هو عبارة عن خليج عميق ينقسم إلى خمسة شروم متعرّجة ، تحميه قلاع وحصون منيعة ذاع صيتها منذ زمن الحروب ضدّ الأتراك.

وفي صبيحة الأمس انتقلنا إلى هنا . في هذه الآونة تُدخَّن رسالتي بالبخار لمنع تسرّب جراثيم الأوبئة من قبيل الطّاعون إلى المدينة ؛ وفي تصوّري أني سوف أتسلم بعد ذلك من « جامس بال » وشركائه حقيبة من الرّسائل الصّادرة عنكم وعن بعض الأحباب ، أنا في أشدّ الشّوق إليها . عدت من صفاقس إلى تونس في ظرف أربعة أيّام ونصف ، مطلقا العنان لفرسي ، نهارا وأحيانا باللّيل أيضا . وقد جابهت طقسا ممطرا شديد البرد بالنّسبة إلى مناخ البلاد ، وسلكت طرقا بلغت أحيانا أقصى حدود الرّداءة فصارت دوابّنا تغوص المرار حتى ركب قوائمها ، وتنبطح بنا في الأوحال .

في تونس لاقيت نفسي ثانية خاوي الكيس دون أي فلس وفي جيبي «كمبيالي » الملعون ، وأخطر ما في الأمر أني بقيت مدينا لأفراد ركبي بأجرة شهر كامل . وما كنت لأتخلّص من هذه الورطة إلاّ بفضل ما اقترضته من بعض الأصدقاء ، وهكذا تمكّنت من القدوم إلى مالطا . وسوف انتهز أول فرصة للعودة إلى تونس لشدّ رحالي حتى أنطلق رفقة ركب صالح صوب وجهة جديدة لأعبر المدن والآثار والتّلال كي أصل إلى طرابلس . وهناك سوف أزور الآثار والأماكن المحيطة ، ثم أقصد مرتفعات برقة ، إمّا برّا ـــ عبر الصّحراء ـــ أو بحرا ، و« برقة » هي سابقا إمارة تجاريّة قويّة وهي الآن وطن جميل لكنه قليل الزّراعة ، يعجّ بالآثار والذّكريات . ولربّما أتوجّه من هناك ، عبر الواحات إلى ضفاف النّيل الشّهير لأبلغ طوالها أقصى ما يمكن بلوغه .

لكن ... (لا شك أنك تكهنت ما سيلي ذلك ؛ إنه فصل يتحتّم للأسف الشّديد ـــ وفي نطاق رحلة كهذه ـــ الخوض فيه) ... بوسعك أن تتصوّر أن الاعتماد المالي « الباريزي » الذي في حوزتي ، والذي استنفدت منه إلى حدّ اليوم ما يزيد على نصف رصيده ، لا يكفي طيلة أعوام بأسرها ، فلا يسعني إلا أن أبوح لك بأنّ ما تبقّى لديّ ، نظرا للتّكاليف الباهضة التي يتطلّبها السّفر في هذه البقاع ، سوف لن يغطّي مصاريفي إلا إلى غاية موفى شهر مارس على أقصى تقدير . لهذا ، ورغم كل ما أشعر به من حرج لمضايقتك في هذه الفترة بالذات ، حيث أن إمكانياتك الماليّة متواضعة ، فإنّي أناشدك أن توفّر لي اعتمادا ماليا جديدا ، ترسله إليّ إلى الاسكندرية ، وسوف أوافيك أسفله بالتّفاصيل اللاّزمة .

أعاهدك على أن لا أبذر شيئا من المال دون فائدة . إنّك لا تتصوّر كم تتطلب مثل هذه الرّحلات من تكاليف ، يجب عليّ هنا أن أجدّد مجمل حاجياتي تقريبا ، ولست أعني الملابس الخارجية فقط ، بل الملابس الداخلية أيضا ، ولا بد لي كذلك من شراء أجهزة جديدة وكتب أخرى وحتى مخالي أخرى لأرصّف فيها أمتعتي . وفضلا عن كل ذلك لا بدّ لي من توضيف

خادم لكي أتمكّن بواسطته من اشتراء المطايا ــ منها ما هو لحمل أمتعتي ــ وإلا لما تيسّر لي ذلك بدون هذه الوساطة . أما في حالة اكترائها فحسب ، فيشترط دوما على المكتري أن يستأجر معها سائسها أيضا ، وينجرّ عن ذلك حتما ارتفاع ملحوظ في التّكاليف ، خصوصا باعتبار طول السّفر . ولو كانت نقودي بحوزتي لكنت تصرّفت هكذا منذ البداية ، وادّخرت نصيبا هامّا .

ومن ناحية أخرى ، فإن ما معي من توصيات يفرض عليّ أن أظهر في المدن بلباس محترم وإلّا لما حصلت لي فائدة ، ولما كنت قطعا أحضى بما أحاطني به القناصل الانكليز من رعاية وحسن قبول لو أنّني لم أهتمّ بمظهري الخارجي . فعند حلولي بتونس كادت قبّعتي الممزّقة وسروالي البالي يحولان دوني ودون أدنى تبجيل . لهذا ، فمن الضّروري أن أنمّق هيئتي حين أعود إلى تونس وأقابل من جديد « السّير توماس ريد » الذي استقبلني في بيته الفخم الوثير وقدّمني لعائلته الكبيرة ، واقترح عليّ أيضا أن يقدّمني إلى الباي ، إذا رغبت في ذلك [5]. إذا تعذّر عليك ، يا أبتي العزيز ، أن تحوّل إليّ مزيدا من الدّارهم دون أن تسبّب لنفسك حرجا أو مضايقة قصوى فإنّي أترجّاك من صميم الفؤاد أن تعلمني بذلك وبكامل الصّراحة . حينئذ سوف لن يبقى عليّ سوى اختصار رحلتي ، وطبعا سيكون ذلك مؤسفا حقّا ، لأنّي سأجبر عندها إلى العدول عن زيارة الجزء الأهمّ ، أي مصر وآسيا الصّغرى وتركيا واليونان بجزرها العديدة الفتّانة ، فلا أستطيع أن أعكس صورة متكاملة لهذا الحوض المائيّ الكبير ، الذي جعلت حياته في مختلف العصور محورا لدراستي . وأنا متيقّن من كفاءتي في إنجاز عمل صائب ، في اعتقادي أنّه سيدرّ عليّ عدّة آلاف « تالر » وعهدا مني ، أني سأعيد منها إلى العائلة والأخوة ما كلّفتهم رحلتي من خسارة وحرمان ، فلا أمنية لي إلّا إسعادهم .

لو كانت إمكانياتي المادّية أوفر لحقّقت نتائج أرقى في استكشافي لهذه الأمصار التي ندر أن وطأتها أقدام الرحّالة ، ولكنّ ضيق ذات اليد ، يعرقلني

فأقف على النّبع الغزير ولا أشفي غليلي . أمّا عن سلامتي فلا تخشوا شيئا ، فحزمي وإلاهي وأسلحتي تقيني . لكن من الآن فصاعدا سوف يطرأ ارتباك على مراسلاتي ، فلا أستطيع أن أضمن لكم شيئا في غضون الثّلاثة أشهر القادمة ، إلّا أن أخباري سوف تصلكم . على الأرجح أني سأحتفل بيوم مولدي بين آثار سبيطلة العظيمة . وأنا حريص على زيارتها رغم الأخطار التي قد تتأتّى من أهالي الجهة المتطاولين [6] .

وسوف أكون أول من يعرف بهذه الآثار بصفة دقيقة بفضل الصّور التي سألتقطها بآلة « داغير » التي معي .

تأكدوا أني سوف أفكّر فيكم عند تناول « الكسكسي » وعليكم أيضا أن تفكّروا فيّ عند تناولكم لمجة المساء .

لازلت أنتظر بفارغ الصّبر الرّسول الذي سيأتيني برسائلكم . لحسن الحظّ ها هو رفيقي المالطي يعزف على القيثارة ويغنّي أعذب لألحان ، فيمرّ الوقت سريعا ، وأنا أكتب . أخيرا وصل السّاعي ليتوّج انتظاري برسالة وحيدة تاريخها 18 نوفمبر ، تضمّنت مكتوبين من الأخوات ــ لا أكثر ولا أقل ــ ولكنّي واثق أنّي سأعثر في مكان ما على المزيد ، ولو بضعة أسطر لطيفة بمناسبة مولد المسيح ، وإلا فيا لتفاهة حصيلتي ! .

---

(1) في النصّ الأصلي : **MKALTA** ، وفي الرحلة : **BOKALTA** .

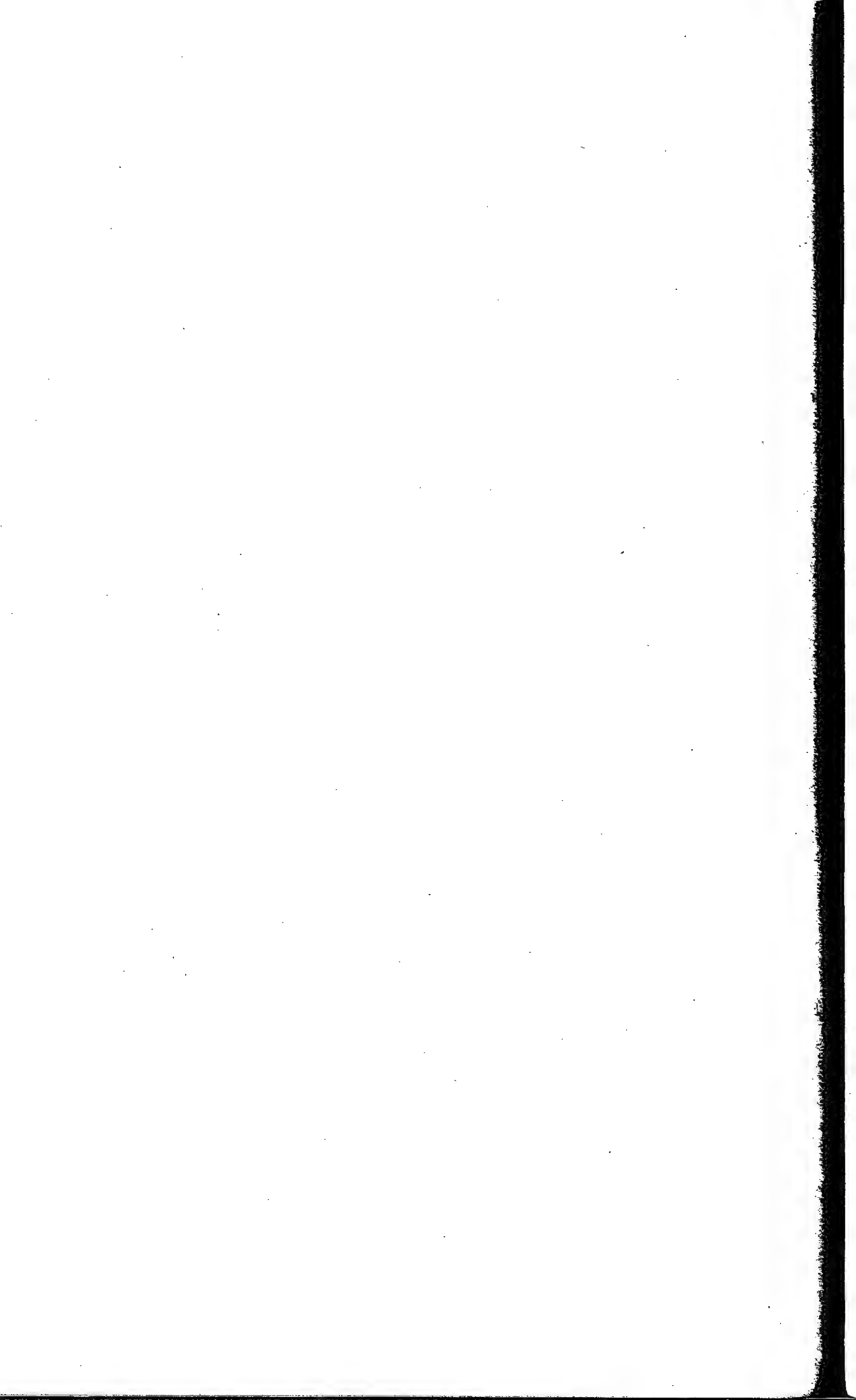
(2) هذا القائد هو فرحات بن محمود الجلّولي . انظر ترجمته بالجزء الثامن من « اتحاف أهل الزمان » لابن أبي الضياف (تونس 1964 ، ص 94) .

(3) يأتي في الرّحلة أن بارت لاقى مشقّة وعناء في هذه اللّيلة ببلدة « طبلبة » الذي أطرد منها وركبه فاضطر إلى مواصلة الطّريق حتى « بقالطة » حيث كان استقباله بالتّرحاب ، كما يقول (انظر : **Wanderungen** ص 162) .

(4) تساوي الميل الألمانية حوالي 7500 متر .

(5) ترفّع بارت عن مقابلة الباي لسببين : « من ناحية لأن مثل هذه المقابلة ليست سوى تشريفة خاوية مملة جاء وصْفها ألف مرة ومرة ؛ ومن ناحية أخرى لأني لا أحبّذ سياسة هذا الأمير ولا أشعر برغبة خاصّة في التعرف عليه شخصيا » . (انظر : **Wanderungen** ص 79) بيد أن رحالتنا لم ينكر على الباي جميله فأعرب له عن جزيل شكره لما سخره له من تسهيلات . وتجدر الملاحظة أيضا أن بارت لم يهتم حتى بهوية هذا الباي الصحيحة إذ قدمه في رحلته بوصفه مصطفى باي ، عوضا عن ابنه أحمد الذي خلفه كما نعرف منذ 1837 ! (انظر : **Wanderungen** ص 78) .

(6) الكلمة المستعملة (Ungezaehmt) تعني « غير مروّض » ويصعب الجزم قطعا ، إن كان القصد منها قصدا سياسيا أو حضاريا ، رغم أنه يتضح فيما بعد أن أهالي المنطقة من الفراشيش كانوا آنذاك في حالة ثورة .





الرّسالة السادسة

مالطا في 9 فيفري 1846

ها أنا لا أزال هنا في نفس المكان ؛ مازالت الرّياح تهبّ غربيّة فحسب ، فتمنعني — يا لتعاستي — من العودة إلى تونس ، إلى حيث أشتاق الرّجوع بكلّ جوارحي . إن الفترة الملائمة للسّفر في تلك الأمصار هي الآن بصدد الانقضاء . وها أنا مرغم على انفاق مالي في هذه الفنادق الباهضة مصاريفها ، عوض أن أصرفها في ما هو أنفع لي .

إن مالطا جزيرة صغيرة ذات أهميّة فائقة ، لا من حيث موقعها وتركيبها الغريب ومرافئها العجيبة فحسب ، لكن أيضا من حيث آثارها القديمة العهد . توجد بها مثلا معابد من سالف الدّهر ، حين كان الفينقيّون يرصّفون سلعهم هنا ويتقرّبون إلى آلهتهم بالقرابين البشريّة . وقد استفدت كثيرا من معاينة هذه الآثار ولم أتهاون طبعا في قيس كلّ ما وجدت منها ورسمه ، لا سيّما أنها لم تدرس إلى الآن إلا بنسبة ضئيلة . وفضلا عن ذلك توجد هنا مكتبة قيّمة بما تحويه من مراجع ومصادر تهمّ التّاريخ القديم ، ثابرت على التردّد عليها للدّراسة ولتدوين استفادتي الدّائبة من رحلتي . لهذا لا يجوز القول أنّي هنا أضيع وقتي هباء ، بيد أن مكوثي في هذا المكان طال أمده ، باعتبار قصر الفترة التي يتحتّم عليّ أن أنهي رحلتي عند حدّها وباعتبار قلّة امكانياتي الماليّة . لقد تزوّدت بعد بكلّ ما أحتاج إليه من لوازم مادّية وفكريّة ، بحيث سأكون طوال ما تبقّى لي من الرّحيل في غنى عن كلّ ما يتطلّب مني تكاليف مرتفعة ، رغم أنه يبقى بودّي إقتناء بعض الحاجيات الاضافية التي ربّما تعود عليّ بجزيل النّفع لكن لا بأس ، فقد أنفقت بعد ما فيه الكفاية .

إن رحلة كالتي أنا بصدد القيام بها تقتضي بأن يتزوّد المرء بصرّة نقود لا تفنى ، عندئذ تكون النّتيجة على ما يرام . لكنّي أخشى فقط يا أبتي أن أكون قد أوشكت بعد على إفراغ صرّتك ؛ لقد بدا وكأنّك مستاء منّي ، وإلا فكيف أفهم صمتك الطّويل عنّي ؟ فمنذ سبتمبر لم تصلني منك رسالة واحدة ، وطوال هذه الفترة لم تكاتبني سوى الأخوات مرة وحيدة ، ثمّ لا شيء من قبلكم حتّى بمناسبة مولد المسيح . إنّك لا تتصوّر قطعا كم يؤلمني صمتك وكيف ينغّص كدرك أوقاتي التي بوسعي أن أستغلّها فيما هو أفضل لو توفّرت لي راحة البال التّامة ، حتّى أستوعب كل ما يعترض سبيلي . إن تعذّر عليك مدّي بمزيد الدّعم ، فعليك أن تصارحني بذلك كتابيّا وابعث إليّ فقط ما يكفيني لعودتي فسوف أختتم رحلتي في منتصفها وأعود . لقد صرّحت لك بهذا في خطابي الأخير وذكرت لك فيه أيضا أشياء أخرى . ومهما كان الأمر فإني أنتظر منك خطابا مطوّلا وصريحا بعنوان السيّد « كارلو لانزوني » بالاسكندرية بمصر حيث لا أتوقّع أن أصل قبل منتصف أفريل . بوسعك أن تبعث هذا الخطاب مباشرة وبأقل تكلفة عبر لندن وجبل طارق ، فهناك سفينة بخاريّة تتوجّه مرّتين في الشّهر من هذا المكان إلى الاسكندرية . إن تعذّر عليك الحصول على « الكمبيالة » بهمبورغ فحاول ذلك عن طريق لندن . إنّه حقّا لمن العار أن تبخل عليّ الأوساط العموميّة ببعض المساعدة ، خصوصا أنّي على عين المكان حاليّا ، أوجد بهذه البلدان التي صرت أعرف طبيعتها ولهجاتها وعاداتها ، ولو حصل ذلك لأمكن لي أن أحقق فائدة أعظم . بيد أنّي أرى نفسي على هذا النّحو غير مرتبط بأيّ كان ، وغير مدين لأحد سواك ، أنت يا أبي وإليك أجدد ما تعهدت به لك في رسالتي الأخيرة .

إن المناخ هنا رائع ، بغضّ النّظر عن تقلّبات هامّة ، كثيرا ما تطرأ في مثل هذا الفصل وتتسبّب عادة في أمراض الحمّى . وليس من النّادر أن تتجاوز درجة الحرارة أرقاما لا تسجّل عندكم حتى في شهر أوت . لقد نما القمح الآن وبلغ ارتفاعه ما يزيد على قدم ، فأضحت أرض هذه الجزيرة الصغيرة ،

بتلالها الكثيرة وقراها العديدة المنتشرة هنا وهناك مفروشة بخضرة نضرة أفسحت المجال لأجمل المناظر الطبيعيّة الخلاّبة . هناك نوع من البرتقال العجيب يمتاز بصغر الحجم يدعى « مندولين » (mendoline) ، كان يسرّني أن أبعث إليكم منه صندوقا صغيرا ، لولا أنّكم صددتموني بأنفسكم عن مثل هذه المبادرة .

لولا التزامي بالعودة إلى تونس لكنت أقلعت منذ مدة صوب طرابلس أو بنغازي ، خاصة أن الفرص متوفّرة للرّحيل إليهما ، لكن عليّ أن أصبر وأن أتجلد مهما طال الأمد والملاحظ أن الأعاصير هنا امتازت في هذا الموسم بوفرة وضراوة غير معهودتين .

تونس في 20 [فيفري 1846]

أخيرا عدت إلى هنا ، أخيرا وبعد انتظار طويل وسفر أطول ها أنا ثانية هنا . في السّاعة الواحدة والنّصف بعد الزّوال من يوم الاربعاء 11 فيفري هبّت ريح شرقيّة ملائمة فأقلعت أخيرا سفينة « ستيلا » التي كنت أودعتها حقائبي منذ مضيّ أسبوع والتي قضّيت أنا نفسي ليلة على متنها . وقد غادرنا الميناء الخلاّب حذو قلعة القدّيس « إلمو » وما هي إلا لحظات حتّى أبحرنا فمررنا بالجزيرات الثّلاث . غير أنه سرعان ما خابت آمالنا في الوصول المبكّر ، ففي المساء وبعد مضيّ حوالي ساعة ونصف على غروب الشّمس سكنت الرّياح ، وظلّت على هذا الحال كامل اللّيل وطيلة اليوم الموالي ، فلم نتحرّك من مكاننا إلا قليلا . وفي المساء تقلّب الجوّ ، وتلبّدت السّماء بالغيوم ، وعصفت ريح قويّة ، لكنّها غير معاكسة لاتجاهنا فدفعتنا صوب جزيرة « بنتلاريا » ثم أوصلتنا إلى جوار الوطن القبلي . لكن في حوالي الثّالثة صباحا هبّت عاصفة شماليّة صدّتنا من اجتياز الرّأس البارز بعيدا داخل البحر والذي يكوّن مع جزيرة صقليّة قناة كانت تعصف فيها في ذلك الحين ريح غربيّة قويّة . وسرعان ما ألفينا أنفسنا نتقهقر جنوبا ، رغم أننا طوينا كافة أشرعتنا . فغدونا في سفينتنا عرضة لتلاطم الأمواج العارمة ، ولتهاطل الأمطار

الغزيرة ، فساء حالنا واشتدّ كربنا . كنت آنذاك فوق السّطح رابضا في مكمني الضيّق كالقبر ، وبينما كانت الأمواج توشك أحيانا أن تفككه وتصيره حطاما ، كنت عاكفا على مراقبة ظواهر شتّى وملاحظتها . ولقد تعذّر على ربّاننا ، من جراء الضّباب الكثيف الذي كان يغمرنا ، أن يحدّد موضعنا بالتّدقيق فوجدنا أنفسنا نتقهقر أكثر فأكثر . وأخيرا وفي صبيحة يوم السّبت أرسينا بمياه قليلة العمق وفي مأمن من الرّياح ، على مقربة من رأس كبودية أو برج خديجة ، بين المهدية وصفاقس ، وهو من الأماكن التي مررت بها خلال جولتي البرّية السّابقة . وانشرحنا لذلك ، خصوصا أن الطّقس كان طيّبا . ومكثنا هناك في معزل عن الأمواج العالية نتنعّم بأشعّة الشّمس الجميلة . فقضّيت غالب الوقت في الدّراسة ، بينما تفرغ النوتيّة لصيد الأسماك وتحضيرها أكلاتا لذيذة شهيّة . في هذا الصدد لا يسعني إلا أن أشيد بما توفّر لي على ظهر هذه السّفينة من تغذية حسنة طوال الرّحلة ، من ذلك أنه كانت توجد على متنها شاتان زوّدتاني كل صباح باللّبن الطّري ولا عجب في ذلك فقد حملت مركبتنا شتّى المخلوقات فضلا عن صفّين من أشجار البرتقال ازدانت بهما ، فصارت وكأنها سفينة نوح ذاتها .

في عشيّة يوم الأحد أقبل علينا مركب تركيّ كان قد أقلع قبلنا بستّة أيّام في اتّجاه تونس أيضا ، وها هو الآن يتجه نحو صفاقس بسبب الرّياح . وخطر لي أن أودعه رسالة لكي تسلّم بصفاقس وتبعث من هناك إلى تونس ، فحصل ذلك فعلا ووصلت قبلي وعادت عليّ بفائدة كبرى . في صباح يوم الاثنين تأهّبنا من جديد للصّعود ثانية نحو الشّمال بمحاذاة السّاحل ، لكن مرّ النهار ثمّ مرّ اللّيل ونحن لم نتقدّم سوى قليلا . وفي اليوم الموالي أدركنا الحظّ فزادت سرعتنا ، وبكل بهجة حيّيت السّواحل والمدن التّي سبق لي أن عرفتها بالتّفصيل والتّدقيق ، وحيّيت خاصّة المهديّة التي لاحت لنا آثارها وهي تشير إلينا من البعد في غروب الشّمس البديع ثم عبرنا خليج سوسة ووجدنا أنفسنا صباح الثلاثاء قبالة الشواطىء الفتّانة على يمين مدينة نابل .

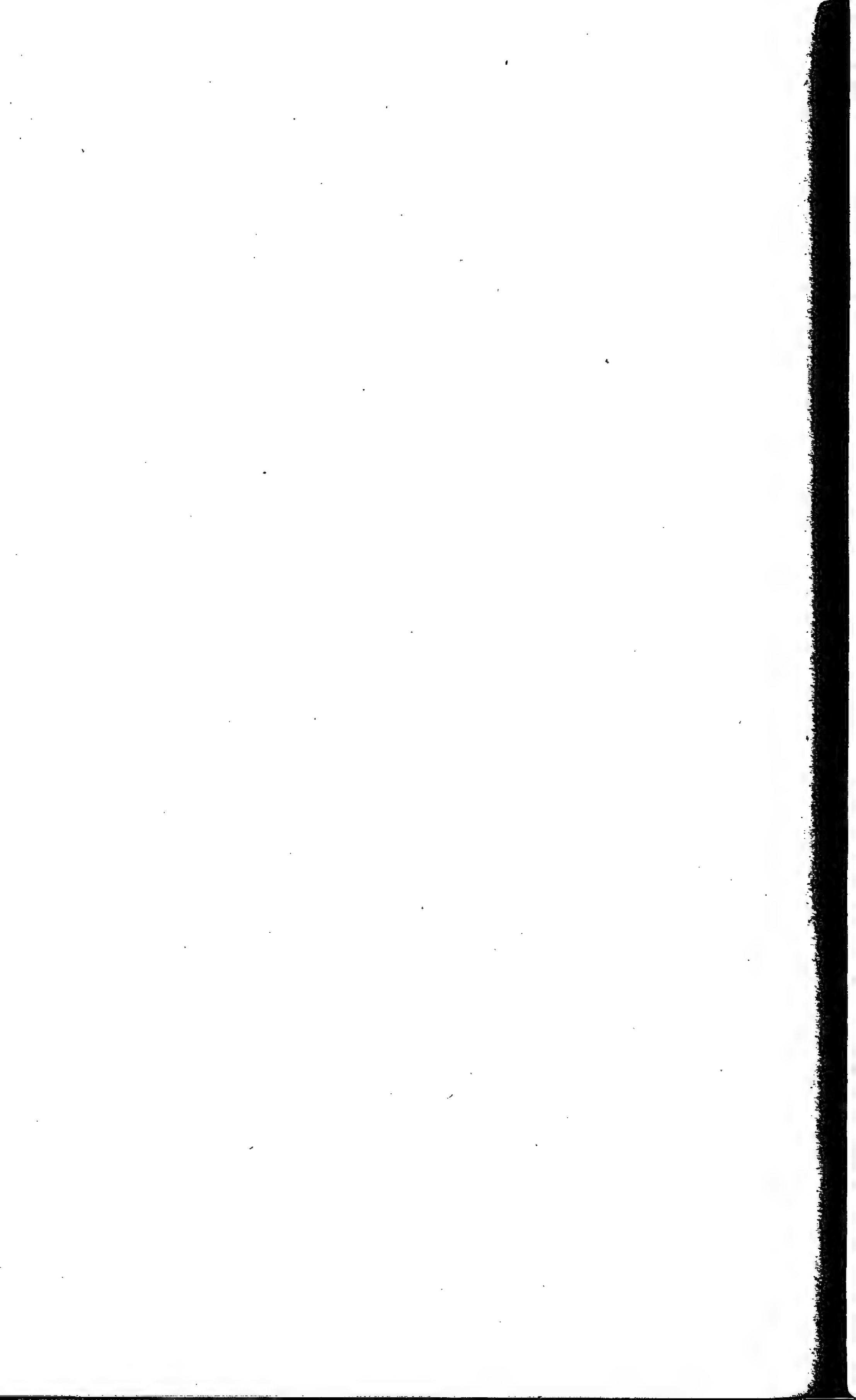
فأستمتعت بمشاهدتها مليّا من مختلف الجوانب لأننا قضّينا كامل النّهار نطوف في نفس المكان بلا جدوى ؛ وحلّ صباح يوم الاربعاء ونحن مازلنا قبالة قليبية حيث انتصبت قلعة فوق هضبة في شكل ترس ، بدت من بعيد كأنّها جزيرة عائمة . ومكثنا هناك طيلة النّهار وقد خوّلت لنا سكينة البحر التامّة صيد كميّات هائلة من الأسماك . وفي المساء بلغنا أخيرا شوكة الرأس ، غير أننا لم نتمكن من اجتيازه بسلام إلا في صبيحة اليوم الموالي أي يوم الخميس . فاتّجهنا صوب الجنوب الغربي ، عرض الشواطىء التي سبق لي أن زرتها ، تدفعنا الرّياح المتقلّبة تارة ببطءوتارة بأكثر سرعة وقد كنّا نتوقّع أن نرسي قبالة تونس في المساء ، غير أن الرّياح سكنت من جديد . وخلال اللّيل هبّت علينا ريح من اليابسة دفعتنا عنوة نحو رأس قرطاجنة حيث أرسينا . وراق لي منظر هذا الخليج السّاحر في ضوء القمر .

في هذا الصّباح ، ومع تباشير الفجر الذّهبيّة وقفت لأتأمّل التّلال والضّفاف التي احتضنت في سالف الزّمان مدينة قرطاجنّة العظيمة . لقد احتجنا لستّ ساعات بأكملها لبلوغ مرفأ حلق الوادي الذي هو في الحين نفسه ميناء مدينة تونس . وأخيرا وفي السّاعة الواحدة نزلت إلى اليابسة ووجدت نفسي مرّة أخرى في كنف الحماية الانكليزية معفى بفضلها من بعض المضايقات . وحملتني عربة إلى تونس على الطّريق المحاذية للبحيرة عبر حقول ازدانت باخضرار نضر ، وغمرني مشهد هذه المنطقة ببهجة عارمة وازداد شوقي إلى الاسراع إلى امتطاء صهوة فرس للركض مرّة أخرى عبر هذا القطر وزيارة مدنه وآثاره ، لا سيّما الآن وقد أعاد إليه موسم الأمطار شبابه . هكذا وبفضل رحلة برّية ثانية ، بالاضافة إلى رحلة في عرض السّواحل ـــ ولو أنها في الحقيقة لم تكن في الحسبان ـــ سأتمكّن من تعميق معرفتي بهذا القطر الجميل الذي كان في الماضي يكتسي أهميّة كبرى. وسوف أرفع رحالي من جديد في ظرف خمسة أيام على أقصى تقدير . وعن قريب سوف أجد نفسي في قطر آخر له خصوصياته في حاضره وماضيه ، وسيزيد في استفادتي ما معي الآن من موادّ جديدة للتّوثيق

والبحث . أتصوّر أنّي سوف أجد في طرابلس رسائل تنتظرني إذ أني أعطيت بمالطا تعليمات في هذا الصدد . إذا وجّهت لي إلى مالطا ، وقبل أن تتلقّى هذا الخطاب ، رسالة مصحوبة بوثيقة الاعتماد المالي فإنّي أرجوك أن ترسل إلّي بأي طريقة كانت نسخة منها مباشرة إلى الاسكندرية بعنوان السيّد «كارلو لانزوني » .

في 22 فيفري ، عساكم أرسلتم إلّي هنا مكتوبا فحوله القنصل أثناء سفري إلى مالطا . مهما كان الأمر أخبروني في رسالتكم القادمة عن كلّ ما وجّهتم إلّي من رسائل . إني أنتظر رسائل من بعض الأصدقاء ولا أتصوّر أنهم لم يكاتبوني البتّة . أودّعكم أيها الأحبّاء وأناشدكم ألا تكنوا لي غضبا .

ابنكم : هاينريش



الرّسالة السابعة

قابس في 23 مارس 1846

أعزائي ، مرّ عليّ الآن قرابة الشّهر ، منذ كاتبتكم آخر مرّة ، أثناء ذلك شاهدت الكثير ، رغم أنه لم يكن كلّ ما كنت أودّ مشاهدته .

في الخامس من هذا الشّهر ، وبعد أن كرّرت زيارتي لرقعة قرطاجنة بأسرها ، التي تحوّلت الآن بفضل الأمطار ، وبفضل الدفء الذي كان بعدها إلى جنّة بحالها . وبعد أن قمت بجولة واسعة النّطاق حتّى ماطر وخصوصا بنزرت التي كانت في ماضي الزّمان مدينة هامّة جدا ، لها مرفأ ممتاز ، وهي لا تزال إلى اليوم بلدة لطيفة تقع على ضفاف بحيرة كبيرة .
بعد هذا أخذت الطّريق أخيرا إلى طرابلس . وقد استنتجت خلال جولتي نحو بنزرت عدم صلوحيّة خادمي والمطيّة التي اشتريتها وعجزهما على تحمّل مشاقّ سفر طويل . فتخلّصت منهما واشتريت علاوة على بغلي القوي بغلا ثانيا ، وتعاقدت مع خادم آخر عربيّ أصيل المدينة التي أكتب لكم منها الآن [1] ، وأنا ممنون كل الامتنان بهذا التّغيير . وكان الجوّ عند انطلاقي مخيفا مرعبا ، لكن ما العمل ؟ فقد ضيّعت وقتا كثيرا ، وآن الأوان لكي أرحل أخيرا . لقد كانت مدينة الكاف هدفي الأول ، فقصدتها عبر سهل وادي مجردة الفتّان ، الذي كان يحفل بالعمران سالفا والذي يعجّ ويمتلىء بآثار المدن الكبيرة الهامّة . وقضّيت اللّيلة الأولى ببلدة صغيرة على ضفاف النّهر تدعى مجاز الباب . وفي اليوم الموالي اجتزت منطقة رائعة الجمال ، ودخلت بلدة « تستور » التي تفوق الأولى أهمّية ، فاطّلعت على آثارها ، ثم قمت بزيارة الأنقاض العظيمة المتبقّية من مدينة « تونقة » ، المدينة

الرّومانية الشّهيرة التي تقع بمكان خطر لكثرة منعطفاته . ثم واصلت طريقي إلى « تبرسق » الواقعة بمنطقة جبليّة فتّانة حيث قضّيت اليوم الثّالث للتّأمّل في هذه البلدة ، ولمعاينة آثار « دقة » الهائلة ، المجاورة لها ولسوء الحظ تهاطلت الأمطار هذا اليوم ، وأربكت محاولاتي في التّصوير بآلة « داغير » التي أحملها معي . كانت هذه بداية طقس مكفهرّ تواصل ستة أيام لا تصلح لسفر أو رحيل . ولقد عدونا في اليوم الرابع تحت الأمطار مارين بآثار عدّة مدن ، إلى أن أوتنا خيمة بدو .

وفي الغد واصلنا الطّريق ، وواضبنا على السّير أربع ساعات وسط ريح باردة كادت تجمّد عروقنا ، الى أن بلغنا مدينة « الكاف » التي تقع بمنطقة جبليّة وتحتلّ منحدر جبل من الجبال . ولقد فات أوْج مجدها ومضى ، اذ هيّ تعيش اليوم تدهورا مستمرا . وتوجد بالمدينة قلعة منيعة تكتسي أهمية قصوى لقربها من الحدود الجزائرية (2) . لقد استقبلت استقبالا حسنا ، فأهداني الكّاهية، ـــ وهو أرفع رجال البايليك شأنا بعد الباي ـــ حصانا ممتازا للغاية . ووهبت له أنا أيضا ساعتي (أرجو ألا تؤاخذني على ذلك) . لقد ظلّ الطّقس رديئا قارسا ، واستمرّت الأمطار غزيرة ، ومع هذا شددت رحالي يوم الحادي عشر عند الزّوال وقطعت مرحلة أخرى في ظروف قاسية حتى وصلنا « لربوز » حيث أقمنا بين البدو ، على مقربة من آثار عاينتها في صبيحة من اليوم الموالي لفترة وجيزة ، أسرعت عقبها الى الخيمة مبتلا . ثم واصلنا السّير عبر مسالك موحلة ، فلم نتقدّم في يومنا هذا أكثر من ساعتين وكان البرد قد اشتدّ بنا ونفذ البلل الى عظامنا حين التجأنا تحت سقف مهترىء حيث رحّب بي موظّف من موظّفي الباي . لقد تسّبب لي هذا الطّقس في اضاعة وقت ثمين ،غير أنّه تحّسن أخيرا رغم المطر الذي ظلّ يتهاطل من الغد ولكن بانقطاع ، فعادت أشعّة الشّمس ، وجفّفتنا .

ومررنا من جديد بالعديد من الأماكن الأثّرية ، يمتاز بعضها بالأهميّة ، فمنها حتّى ما هو فينقي الأصل ، الى أن وصلنا الى « مغراوة » حيث مقام

قائد أولاد عيار وهو يقع بالجبال ويتمثّل في مجرّد مجموعة من ثلاثين منزلا حقيرا لا غيرَ . ومن هناك قصدت الموضع المسمّى « حمّام » [3] لأشاهد قبوره القديمة . وفي الخامس عشرة من هذا الشّهر لم أستطع التّملّص من ضيافة القائد الكريم الا بعناء ، وبعد مغادرتي المكان أطلت الوقوف على آثار « مكثر » فلم أقطع اثر ذلك سوى مسافة ثلاث ساعات وصلت في ختامها الى دوار قضّيت به اللّيلة وفي الغد طويت مسافة ستّ ساعات حتّى بلغت مخيّم خليفة ماجر؛ ولكم كانت خيبتي كبيرة عندما تأكّد لي هنا أنه يستحيل عليّ بلوغ « حيدرة » وسبيطلة وقفصة ، بل أنه يتحتّم عليّ اتّباع طريق آخر والتوجّه صوب القيروان[4]. يالسوء حظي ! فكأنه ماكفى أن الطّقس عرقل سيري كما شاء وابتغى ، بل وما أن تحسّنت حاله وسرى دفء منعش حتّى كانت انتفاضة البدو هي الأخرى تحبط مخطّط سفري، فاضطررت عندئذ الى العدول عن زيارة جزء من أهمّ أجزاء القطر . ولقد بذلت ما في وسعي لتحقيق غايتي ولم أتوان عن ذلك ، بل كاد تعنّتي واصراري يؤدّيان بي الى ما لاتحمد عقباه . فما العمل اذ لم يبق لي سوى الرّكوب من الغد وجهة القيروان؛ وشققت طريقي في البداية عبر سهل ثمّ عبر جبال خلاّبة فلم أتوقّف الاّ في ساعة متأخّرة بعد الغروب . ثمّ واصلت السّير مبكّرا . وبعد الشّروق بقليل وجدت نفسي ثانية أمام أبواب القيروان التي بقيتَ هذه المرّة موصدة في وجهي ، أنا « الرّومي » [هكذا] لأني لم أستظهر هذه المرّة بأمر خاص من الباي ، فما كنت قطعا أتوقّع أن الاقدار سوف تتيه بي ثانية الى هذا المكان.

أرسلت عساكري الى المدينة ليجدّدوا زادنا من التّمر والخبز . وبعد تفكير عميق غلبت عليه الكآبة ، قرّرت المجيء مباشرة الى هنا [أي قابس] ؛ وعدوت بقوّة طيلة ثلاثة أيّام عبر فلاة موحشة يسكنها بدو يمارسون السّطو والنهب [5] . ولم نعرف طوال مرحلتنا هذه أيضا سوى الخبز والتّمر و« الكسكسي » طعاما ، ومن الشّراب غير مياه الغدران العفنة.

قابس ، مكان في منتهى العذوبة والامتياز ، ولقد خيّل الي أنّي تحوّلت

فجأة الى بلاد الهند لفرط الدّهشة التي انتابتني لما بلغت ضاحية الموقع . وسرت في مسالك ضيّقة عبر حدائق النّخيل المنسّقة تنسيقا على أحسن وجه ، وقد تخلّلتها سنابل القمح في أوج أخضرارها . وفي قلب هذه الجنائن توجد البلدة التّي هي في الواقع ، وعلى غرار العديد من مدن الجريد ، مجرّد مجموعة من القرى المنفصلة عن بعضها تماما.

والمنازل هنا منخفضة الارتفاع ، منفتحة على السّماء ، يكاد تركيبها ينحصر على فناء وبهو فحسب ، وهي تتلاءم في طابعها الخفيف مع المحيط الطّبيعي على أحسن وجه . انه لعمري مشهد يفوق كلّ حدود الرّوعة والبهاء واللّطف . ولقد شعرت بنشوة عارمة لمّا خرجت هذا اليوم على حصاني للنّزهة بين هذه الحدائق ، ومشاهدة الأهالي وهم ينهمكون بين قرع الطّبول ، والصّياح المرتفع والدّوي في إقامة سدّ في الوادي . والسّد هذا ، بفضل ما يوفره من مياه لسقي حدائقهم ، هو أساس ثروة هذه الواحة المطوّقة بصحراء قاحلة ، جدباء.

ومن الملاحظ أن أهالي المكان لا يتّسمون الى حدّ ما بطبع سلميّ ، بل انه من الجاري أن تنشب الحروب بين سكّان كلا القريتين [6] ؛ وينتظر حاليّا أن تندلع معركة جديدة بسبب السّدّ ، لأنّ مواطني احدى القريتين أحجموا عن المساهمة في اقامته . ويحسّ المرء على العموم بجوار هذه الصّحراء الشّاسعة حيث العصابات النّهّابة في تطاحن مستمرّ ضد بعضها البعض أو بالمرصاد للمسافرين للسّطو عليهم اذا وهنت قدرتهم الدّفاعية .

جربة في 28 [مارس 1846]

مرّت حوالي ثلاثة أيّام على حلولي بهذه الجزيرة السّاحرة التّي تبدو كأنّها روضة ليست لها حدود ومجموعة متتالية من المنازل الرّيفيّة الأخّاذة . ولو كانت هذه الجزيرة تخضع لحكم أفضل لغدت جنّة بأتمّ معاني الكلمة.

وقد وصلت اليها — وهي التّي سبق آن سَحرت رفاق « أوليس » وأنستهم

أوطانهم ـــ بعد مسيرة يومين عبر برار مترامية الأطراف ، قليلة المياه ، لاتعترض المسافر فيها سوى بعض النّقاط الخصبة من قبيل قرية « الزارات » المسوّرة بحدائق النّخيل ، حيث أقمت ليلة ؛ وفي نهاية المطاف استقلت مركبا قطع بي المسافة القصيرة التّي تفصل هذه الجزيرة اللّطيفة عن اليابسة.

طرابلس في 5 [أفريل 1846]

هنا فقط ، هنا يا أعزائي ! في هذا المكان الذي بلغته بعد رحيل شهر منذ غادرت تونس ، أتلقّى أخيرا بضعة أسطر أخرى ، هنا أعلم أخيرا بأنّكم لازلتم أحياء ترزقون ، بأنّكم في صحّة وعافية ، وبأنّكم ما فتئتم تكنّون لي المحبّة . فالحمد للسّفينة التّي حملت لي الرّسائل والشّكر للبحر الذي أوصل السّفينة وأودعها المرسى بسلام . لا يعلم الا الرّب كم فكّرت فيكم خلال سفري ، سواء كنت ممتطيا صهوة جوّادي الأسود وهو يطوي بي البراري المترامية ، التّي تتخلّلها واحات النّخيل ، وتغمرها أشعّة الشّمس الحامية ، أو مستلقيا على حصير تحت سماء الخيمة . ليس بمقدوري أن أصف لكم كيف فكّرت فيكم ، وفي أيّة ظروف . لكن يحقّ لكم أن تعيبوا عليّ تأويلاتي في شأن صمتكم الذي طال ما لايقلّ عن أربعة أشهر . والآن ، ياخير من يعزّ عليّ ، ويامن يعزّني فوق كلّ شيء ، يتّضح لي أنّكم من جهتكم أيضا ترقبتم رسائلي ، مثلما ترقّبت أنا رسائلكم ، وتساءلتم في منتهى الحيرة عن أحوالي . وأنا لا أتمالك أن أستغرب كم أخطأت في تقديري للآجال التي تصلكم فيها مكاتيبي وكنت في كل مرة أتوقع فيها وصول احدى رسائلي إليكم أشاطركم الغبطة عن بعد ليقيني بأن رسائلي تدخل عليكم بعض المسرّة والانشراح . ولكن ماذا يجدي الآن كل هذا ! الحمد لله انه ليس هناك داع آخر لصمتكم عنّي ، والمهمّ أنّي أعلم الآن أنّكم أحياء ترزقون وأنّكم تحبّونني ؛ وبرهانك على ذلك عظيم يا أبي الحنون ! اذ أنّك لم تكتف بالمنّ عليّ برسالة ملؤها المحبّة واللّطف بل كذلك ـــ ولربما قبل أن أفاتحك في هذا الغرض ـــ بدعم مالّي جديد لكي أواصل رحلتي . وبينما تتقيّد العائلة

بالتقشّف والاقتصاد، وفي حين أنك لا تدري أنت نفسك من أين لك ما يفي بنفاقتك الضّروريّة ، ها أنت تضحّي بمقدار إضافي في سبيل تكوين ابنك ؛ لا أقدر ولا أريد أن أعبّر لك الآن كم أحبّك ، بل أرجو أن أبرهن لك عن ذلك لمّا أعود من هذه الرّحلة ، مكتمل الرّجولة ، ثريّا علما وخبرة.

تسلّمت هنا ، بطرابلس وثيقة الاعتماد المالي « اللندني » الذي يعود فيه الفضل الى طيبة نفس السيّد « بركماير » . وتوجد الوثيقة الآن معي لتصحبني في تجوالي عبر الصّحراء وبين آثار « سرنايكا » الرّبّانيّة ولتصل معي إلى مصر . ما هي الا أيام قلائل ، ثم أشدّ عصى التّرحال من جديد . يصعب عليّ أن أصف لكم ما حضيت به هنا من التّرحاب والمودّة والتّبجيل . لقد سبق أن تزوّدت أثناء اقامتي بـ« لندن » بتوصيات الى السيّد « ديكسون » ، طبيب الباشا الخاصّ وصديق القنصل الانكليزي ، وقد سبق أن كاتبته من مالطا ، قبل رجوعي إلى تونس وهكذا ، وبفضل وساطته ، أوعز الباشا الى قائد زواره ـــ وهو أول مكان بهذا « الباشاليك »يعترض القادم من الحدود التّونسية ـــ بأن يضع كلّ شيء رهن إشارتي حالما أصل . ولكن كان عليّ قبل هذا أن أتجاوز أخطار الطّريق المؤديّة إلى هذا المكان . بيد أن الآلهة لم تبخل عليّ برعايتها ، فقد تولّى يونانيّ من جربة يدعى « كوتولومار » ـــ عمر الله بيته ، وحفظ سمعته ـــ بإيفاد رسول إلى شيخ عربيّ من ذوي النّفوذ يدعى سعيد بوسمّين ، وأعطاني رسالة وحيدة [8] . وبمعيّة القنصل [9] وخليفة قابس أوكل الى شاوش « الورغمّة » وقبائل عربيّة قويّة أخرى بأن يواكبني شخصيّا حتّى الحدود . هكذا ، وبعد أن اطلعت على كل ما امتازت به جزيرة « أكلة زهر اللوتس » الغنّاء ، انطلقت صبيحة يوم الأحد من محلّ سكناي المطلّ على السّوق بشمال الجزيرة حيث تشكّل مجموعة من « البازارات » ما يذكّر ببلداتنا الصغيرة وحيث لا تشتدّ الحركة الاّ أيّام السّوق التّجاريّة [10] ، وسرت راكبا عبر المزارع نحو المنزل الجميل والمحاط بالنّخيل حيث يقيم الشّاوش . وقد كنت اعتزم متابعة السّير معه فورا صوب جرجيس ، غير أنه أصرّ بكلّ أساليب الكرم العربيّ على بقائي

فوجدت نفسي مضطرّا لقبول الدّعوة عن مضض .

وفي العشيّة ، حين خفت وطأة القيظ ، خرجنا الى النزّهة عبر البساتين المحيطة وقد انضمّ الينا شيخ سمح المزاج ، عظيم البنية ، مهيب الطّلعة ، ازدان بلحية فضيّة البياض اسمه سليمان بن عيّاد [11] ، فجلس ثلاثتنا على الثّرى في ظلّ نخلة ، وتجاذبنا أطراف الحديث فيما يتعلّق بالمسيحيّين والمسلمين [12] .

وفي الصّباح الباكر من يوم الاثنين رحلت رفقة الشّاوش وخمسة من رجاله ، امتطى أحدهم جملا والثّاني بغلا ، بينما ترجّل الآخرون.

وتوجّهت صوب جنوب الجزيرة ، ثمّ اجتزت البحر على متن قارب ، وواصلت السّير عبر بريّة أغلبها قاحل، حوت بعض الآثار القديمة ، الى أن بلغنا نخيل وزياتين جرجيس . في هذه البلدة الصّغيرة رحّب بي اليونانيّ الذي حملت اليه رسالة التّوصية . وقد رافقني هذا الأخير الى موقع على مسافة ساعة ونصف توجد به بقايا مدينة رومانيّة هامّة [13] . ولولا هذا المرافق لما أمكنت زيارة هذا الموقع بسبب البدو الّذين يعيشون هناك.

وفي يوم الثّلاثاء صباحا اصطحبني الشّاوش مسافة أربع ساعات ثّم ودّعني تاركا معي اثنين من رجاله ، فضلا عن خادمي حامد . وقد قادني هؤلاء بادىء الأمر عبر بريّة شاسعة حيث فاجأتنا حيّة عظيمة سامّة ، قتلناها وقطعناها الى أجزاء ألقينا بها على حافّتي الطّريق ، ثمّ مررنا بينها لاجتلاب بركة الآلهة فوق رؤوسنا . سرنا بعد ذلك طوال لسان برّي كلّه حجارة ، تواجه طرفه جزيرة تكاد توصد القنوات الرّابطة بين البحيرة الكبيرة والبحر . وفي هذا الطّرف كان في انتظارنا فرنسيّ شبه متوحّش ، لكنّه لطيف الى أقصى حدّ ؛ وقد أوكل له الباي وظيفة مراقبة الحجز الصّحّي [14] . ومن دلائل طيبة نفسه أنه حرص على صيد بعض الأرانب لكي يوفّر لي طعاما في هذه الرّقعة الجرداء المعوزة . وحملنا هذا الرّجل في قاربه الى الجزيرة حيث توجد أكواخ حقيرة أقيمت من حجر وسعف نخيل ، شكّلت بمعيّة برج مركز

الحدود « البيبان » . هناّ اتّخذت لي مقاما حسب ما توفّر من أسباب الرّاحة ، وتناولت الأرنب الذي تكرّم به عليّ الفرنسيّ المضياف . وفي الصّباح الموالي عبر بي هذا الأخير بواسطة قاربه القناة العميقةوما تلاها من القنوات التي تفصل شرقا هذه الجزيرة الصغيرة عن اليابسة ، وتبعتني خيولي سباحة . وهكذا وطئت أوّل مرّة الاقليم الطّرابلسي وليس برفقتي سوى خادمي حامد وأحد أتباع شاوش « الورغمّة» ، في حين امتنع الثّاني عن المجيء ، ولعلّه من فرط الجبن . لقد أملنا أن نعترض بوسمّين على الفور ، لكن مرّت السّاعات دون أن يظهر لنا أثره ، فتملّك التّابع الثاني ذعر وفزع ، ووقف مكانه قصد الانسحاب ، لكنه عدل عن ذلك لما رآنا أنا وحامد ـــ الذي قوّيت عزائمه ـــ نداأب على السيّر ، فالتحق بنا والغضب يملأ صدره . وأخيرا وبعد مضيّ ثمانٍ ساعات اكتشفنا في منعرج الطّريق خيام بوسمّين الذي بالغ في التّرحيب بقدومي واعتذر لي وألحّ على أن أنزل اللّيلة في ضيافته . وركبنا في الصّباح فسرنا في بسيطة ، بعض أجزائها طيّب للغاية ، إلى أن وصلنا بعد خمس ساعات الى زوارة . وهي أول بلدة طرابلسيّة، تضمّ حوالي ألفي منزل [15]، وتقع وسط واحة نخيل رائعة الجمال وبها أيضا مرفأ صغير .
كان سيدي بوسمّين سابقا قائد هذه البلدة ، ثمّ وقعت إقالته وملاحقته ، وهو اذ يعود اليوم الى هنا فبصفته مرافقي فقط ، وقد أدخلني الى بيته حيث دار مشهد منعش ، ففي الحين التفّ حوله أبناؤه الذين لم يرهم منذ ستّة أشهر ، وما هي الاّ لحظات حتّى التحق بنا جلّ أعيان المكان ، ممّا يدّل على مكانة صاحبنا الممتازة وعلو شأنه بين قومه . وقد واكبني مسافة ساعتين عبر البريّة في صباح يوم الخميس ، ثمّ ودّعني متوسّلا اليّ التّدخّل لفائدته لدى الباشا[16]. بعد ذلك تابعت طريقي رفقة حامد وأحد أتباع بوسمّين، وجنديّ ألحقه بي قائد زوارة الحالي ، بمعيّة جمل حمّلته أمتعتي عوضا عن بغلي الذي أصيب بالارهاق . ولقد تبع هذا القائد أوامر الباشا وسخّر لي كلّ ما بوسعه.

لقد مررت بأماكن أثريّة بالغة الأهميّة ، ثمّ بغابات نخيل فائقة الجمال ، لاتفصل بينها سوى مسافات قصيرة . وفي المساء نزلت بمسكن صغير ولطيف ، يقع بحاشية احدى هذه الغابات ، يملكه رجل من ذوي الجاه والنّفوذ . وواصلت بعد ذلك السّير يوم الجمعة ، مارّا أولا بغابات نخيل ساحرة ، كالزاوية وزنزور وعدّة قرى صغيرة أخرى ، ثمّ عبرت بسيطة جرداء ، الى أن انتهى بي المطاف الى هذه المدينة الرّائقة ، صغيرة الرّقعة لكنّها حسنة الموقع . وهنا عشت ساعات ممتعة للغاية ، بفضل الحفاوة التي خصّني بها القنصل (17) وغيره من الأشخاص ، وكذلك بفصل رسائلكم . ويحتلّ القنصل منزلا ريفيّا في منتهى البهاء ، يقع على حافّة البحر ، غير بعيد عن المدينة ؛ وقد تردّدت عليه الى حد الآن ثلاث مرّات ، وبوسعي الاقامة به ، كما عرض عليّ صاحبه . طرابلس ، أو « اتريبولي » كما ينطق لسانكم معشر المسيحيّين طبقا للنّطق الايطالي ، هي مدينة هامّة جدّا وبوسعها أن تزداد أهميّة بفضل التّجارة مع داخل افريقيا ، اذ تربطها بهذه البقاع أقرب الطّرق وأكثرها أمنا . وكم يشوّقني أن أسلك هذه الطّريق لولا أن ذلك يحيد بي كثيرا غايتي الأوّليّة .

ان هذه المدينة الصّغيرة منيعة الحصون ، تحيط بها غابات النخيل والزيتون والبرتقال ، فتوفّر للبصر مشهدا في منتهى الفتنة . وهي لم يبق بها الآن من الآثار القديمة سوى قوس رومانيّ بديع الزّركشة . ولكن رغم كل هذا فإنّ اقامتي بطرابلس لايجب أن تطول ، فسوف أغادرها بعد يومين لأباشر رحلة برّية هائلة لا تمتّ بصلة إلى سفر القطار ، أتّبع فيها خليج « سرتا الكبرى » ، وأجتاز نجد برقة الجميل والغنيّ بالآثار ، ثمّ الواحات ، حتّى أصل مصر . وهي رحلة تتطلب حقّا معدّات ضخمة . ولكي أقطع مسافة خمسة وعشرين يوما تفصلني عن بنغازي يجب عليّ أن أتزوّد بكلّ ما يلزم من المؤونة مع مراعاة حاجيّات الانسان والحيوان ؛ ويجب أن أحمل معي خيمة ، ولنقل كل هذه الأشياء أرى نفسي مضطرا لشراء ثلاث جمال قويّة صلبة ، علاوة عما أملك من بهائم . انها رحلة كلّها مشقّة وعناء نظرا لشدّة الحرارة وندرة الماء . غير أنها هامّة جدّا بالنّسبة إليّ .

ربّما أكون وصلت بعد الى بنغازي ، عندما تبلغكم هذه الرسالة . وسوف أكتب اليكم كلّ ما حدث لي.

مع رسالتك ، يا أبي العزيز ، تلقّيت خطابا من « ماتيلدا » الصغيرة . فأدخل عليّ السّرور لولا أنّي قرأت فيه خبرا محزنا وهو ان هذا الحيوان الصّغير دائم الاعتلال . وأنت كذلك أصبت بتوعّك ، لم يسيء أمره لحسن الحظّ . ولاريب أن الصّيف سوف يعيد لكم كلّكم الصّحة والعافية .

تهانيّ الحارّة الى والدتي العزيزة بمناسبة عيد ميلادها ، وأخلص تشكّراتي لها، لحذقها صرف الورثة الصغيرة ، التي حصلت عليها ، في سبيل إسعاد الأخوات . تحية قلبية إلى « هانريات » أما ذلك الوغد اللّعين فالأفضل أن أحجم عن ذكره من جديد . ولئن تذكّرته في هذه الآونة ، فما ذلك الا من باب الصّدف ، وبشديد الامتعاض . .

على فكرة ، أثناء اقامتي بمالطا وصلتني الى تونس رسالة موجّهة إليّ ، أعادها القنصل خطأ الى مالطا ولم أحصل عليها لأنّي كنت قد غادرت الجزيرة بعد ويؤسفني هذا كثيرا خاصة أني لا أدري من هو باعثها .

أتمنّى لكم أن تقضوا صائفة ممتعة ومريحة ، أمّا أنا فلا شكّ أنّي سأستشعر شيئا من الحرارة .

بلّغوا سلامي الى « بركماير » و«شوفيبي » وغيرهما من الأحباب . وهذا عنواني :

د . ه . بارت
الاسكندرية بمصر
كارلو لانزوني

(1) اسم هذا الشخص الذي رافق بارت من تونس الى مصر هو حامد بن بلقاسم الشريف. وقد أطنب بارت في التنويه بخصاله وبخدماته .

(2) نقرأ في رحلة بارت أن الآغا آمر القلعة لم يسمح له بزيارتها بدون أمر خاصّ من الباي نفسه.

(3) يعتقد بعض من استشرت من الزّملاء الأخصّائيّين أن يكون هذا المكان «حمّام زواكر» (Tigimma).

(4) سبب هذه العرقلة هو وجود الفراشيش بقيادة شيخهم قضوم في حالة ثورة في تلك الفترة بالذّات (انظر : ... wanderungen ص 240)

(5) يروي بارت أنه تعرّض خلال هذه المرحلة الى ثلاث محاولات سطو من طرف قطّاع طريق. وقد جلب انتباهه خلال المحاولة الأولى وجود شابّين بين أفراد العصابة كانا يحملان الزّي العسكري النّظامي. (انظر :... wanderungen ص 240).

(6) أي حيّا جارة والمنزل . سبق أن تعرض الرحالة الألماني إيفالد لهذا الموضوع لما زار قابس في صائفة 1835 (انظر Ch. Ewald, Reise des evangelischen Missionars Ch. F. Ewald von Tunis ... nach Tripolis ... im Jahre 1835. Nurnberg 1837, pp. 79'101.)

(7) يعرّف به بارت في رحلته بوصفه : «رجل لطيف للغاية أروبيّ الثّقافة، أدّى لي أجلّ الخدمات. وهو أكبر تجّار هذا المكان ويتعاطى تجارة الصّابون الذي ينتجه مصنعه الهامّ، وخصوصا تجارة النّشّاف، إذ أنه ينفرد بحقوق صيده في هذه الشّواطىء».
(انظر : ... ...wanderungen ص 260).

(8) يتّضح فيما بعد أن هذه الرّسالة موجّهة الى نائب كوتولومار بجرجيس.

(9) أي نائب القنصل الانكليزي كارلتون (carlton)

(10) أي أيّام الخميس، كما يأتي في الرّحلة.

(11) من المحتمل أن يكون هذا الشّخص هو سليمان بن عياد نفسه الذي كان قائدا على جربة في سنة 1835، اذ نلاقي في رحلة الأمير بوكلير موسكاو نسخة لمكتوب من مصطفى باي الى هذا القائد بتاريخ 14 ربيع الأول 1251 الموافق ل 10 جويلية 1835، (انظر: Pückler-Muskau Semilasso in Afrika الجزء الثالث ص 283).
ونجد كذلك في رحلة ايفالد (1835) ذكرا لهذه الشخصية (انظر... Ewald, Reise ص 125—126).

(12) يروي بارت أيضا أن سليمان بن عياد دعاه لحديقته وشرح له سبب الاهمال الذي كانت عليه حينئذ بتقلّص اليد العاملة نتيجة قانون تحريم الاسترقاق الذي أصدره أحمد باي تحت ضغط أنكلترا (انظر... Wanderungen ص 265) .

(13) هذا الموقع هو، حسب ما ورد في الرحلة : هنشير مدينة زيان.

(14) توقع بارت أن هذا الرجل الغريب (الذي يرد ذكره أيضا في رحلة بالليسي :

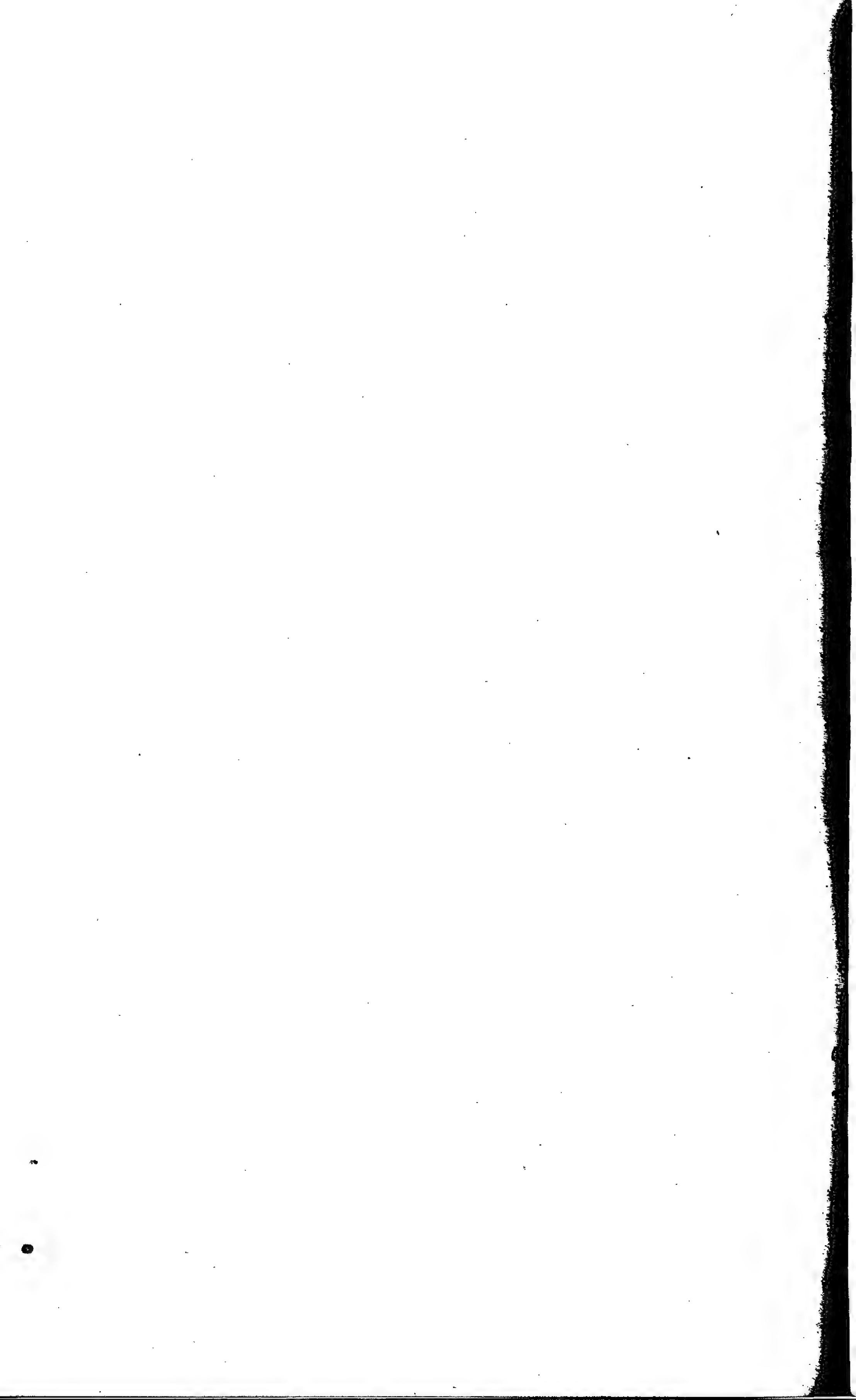
E. Pellissier, Description de la Regence de Tunis. Paris 1853, P. 167)

كان يتعاطى الجوسسة لفائدة فرنسا في هذه النّقطة الحدودية.

(15) ينخفض هذا الرقم في الرّحلة الى 600 منزل فقط.

(16) نستخلص من رحلة بارت الافريقيّة الثّانية أنه تدخل فعلا لفائدة هذا الرجل فسمّي من جديد واليا على زوارة (انظر : **H.Barth, Reisen und Entdeckungen in Nord - und Central - Afrika in den Jahren 1849 bis 1855. Gotha 1857, I, 14.)**

(17) أي قنصل انكلترا العام في ذلك الحين وارينغتون **Warrington**



Mühseligkeiten, da die Wärme und der Mangel an Wasser groß ist, aber mir von großem Interesse. Wenn Ihr diesen Brief erhält, bin ich vielleicht schon in Bengazi und schreibe Euch die Schicksale meiner Reise.

Außer deinem Brief lieber Papa habe ich auch noch von Mathildchen einen erhalten, der mir viel Freude gemacht hätte ,wenn er mir nicht zugleich die traurige Nachricht zugebracht hätte, daß dieses kleine Thier fortwährend kränkelt. Auch Du bist ein Bischen kränklich gewesen, aber glücklicherweise nicht bedeutend und der Sommer wird Euch Alle wol wiederherstellen. Der lieben Mama meine herzlichen Glückwünsche zum Geburtstag und meinen innigen Dank für die gute Anwendung die sie von ihrer kleinen Erbschaft gemacht hat um den Schwestern eine recht große Freude zu machen. Auch Henrietten meinen herzlichen Gruß. Von einem gewissen gemeinen Esel spreche ich gar nicht mehr, so wie ich auch nur ganz zufällig und ganz gegen meinen Willen diesen Augenblick an ihn denke.

Apropos in Tunis ist während ich in Malta war ein Brief für mich angekommen und der Consul hat ihn aus Versehen nach Malta zurückgeschickt, so daß da ich damals die Insel schon verlassen hatte, er nicht in meine Hände gekommen ist. Darüber bin ich höchst unglücklich, besonders da ich nicht weiß, von wem er ist.

Möget Ihr den Sommer recht vergnüglich und gemütlich verleben, mir wirds wol ein Bischen warm werden.
Macht viele Grüße Berckemeyer und Chaufepié und den übrigen Freunden.
Meine Adresse
H. Barth Dr
Alessandria die Egitto, Carlo Lanzoni

Diener Bou Semmins während ein Soldat des gegenwärtigen Kaids von Zoara der dem Befehl des Baschas gemäß Alles zu meinem Befehl gestellt hatte das Kameel begleitet, worauf ich da mein Maulthier angegriffen war, mein Gepäck gepackt hatte. Höchst interessante Ruinen einer außerordentlich großen Stadt passirte ich diesen Morgen, dann gings bei höchst anmuthigen Dattelpflanzungen in geringer Entfernung von einander vorbei und am Abend blieb ich in der niedlichen Behausung einer sehr bedeutenden Person gelegen am Rande einer dieser Pflanzungen und ritt dann am Freitag zuerst uber wundervolle Pflanzungen als die von Zauia und Sensour und vieler anderer Kleinerer Dörfer, dann über kahles Land nach dieser kleinen aber gut gelegenen und ganz niedlichen Stadt wo die Freundlichkeit des Consuls und anderer Leute und Eure Briefe mir sehr vergnügte Stunden [bereiteten]. Der Consul hat einen wunderschönen Landsitz hart am Meer unweit der Stadt, wo ich nun schon dreimal gewesen bin und ganz logiren könnte, wenn ich sein Anerbieten annehmen wollte. Taraboloss oder wie Ihr Christenmenschen es nach den Italiänern nennt, Tripoli, ist besonders wichtig und könnte noch unendlich wichtiger sein wegen des Handels mit dem Innern Afrikas, wohin von hier aus die nächsten und sichersten Wege gehen und wohin ich große Lust hätte zu gehen, wenn es mich nicht von meinem eigentlichen Zweck zu weit abführte. Diese kleine gut befestigte Stadt ist mit Palmen, Oliven- und Orangenpflanzungen umgeben und bietet einen ganz hübschen Anblick dar. Von Alterthümern ist hier nur ein sehr geschmakvoll verzierter Römischer Bogen übrig. Mit allem diesem ist Tripoli kein Ort langen Aufenthaltes für mich und schon nach 2 Tagen gehts fort zu einer großartigen nicht eben eisenbahnartigen Reise von hier zu Lande um die große Syrte herum, durch das schöne und an Ruinen reiche Plateau von Barka, dann die Oasen nach Egypten. Diese Reise erfordert abert famose Anstalten. Für 25 Tage bis ich Bengazi erreiche muß ich Vorrath an Allem einlegen, Nahrung für Menschen und Thier, muß ein Zelt mit mir nehmen und bin so gezwungen zur Fortschaffung aller dieser Sachen mir zu meinen übrigen Thieren noch drei starke Kameele zu kaufen. Es ist eine Reise voll Strapazen und

armseligen Hütten liegen die sammt einem Castell den Gränzort Biban (die Thore) bilden. Hier quartirte ich mich also so gut als möglich ein und verzehrte den Hasen den ich der Freundlichkeit des Franzosen verdankte. Am ander Morgen brachte mich eben derselbe in seinem Boote über den tiefen Canal und andere Canäle die auf der Ostseite diese kleine Insel vom Festland trennen, während meine Pferde durchschwammen und ich betrat zum ersten Mal das Tripolitanische Gebiet nur begleitet von meinem Diener Hammet und einem Diener des Schausch der Urgannim, indem der andere wol aus Feigheit zurückgeblieben war. Wir hofften bald Sidi Bou Semmin zu finden aber wir marschirten von Stunde zu Stunde aber Nichts zeigte sich, da wollte mich auch der andere Diener voll Angst und Furcht verlassen und blieb zurück, als er aber sah, daß ich und Hammet, dem ich nach Kräften Mut zugesprochen hatte, dennoch vorwärts marschirten, kam er uns freilich wüthend nachgelaufen und wir machten vorwärts, endlich nach 8 Stunden Marsch fanden wir vom Wege abbiegend das Gezelt Bou Semmins, der mich sehr freundlich aufnahm und sich entschuldigte auch mich nöthigte, die Nacht in seinem Gezelt zu bleiben, so daß wir erst am folgenden Morgen aufbrachen und nach fünfstündigem Marsch über zum Theil sehr gutes Land Zoara erreichten d [en] ersten Tripolitanischen Ort von etwa 2000 Häusern in einer ganz schönen Dattelpflanzung gelegen auch mit einem kleinen Hafen. Sidi Bou Semmin früher Kaid dieser Stadt, dann abgesetzt und verfolgt konnte nur als mein Begleiter diese Stadt wieder betreten, wo er mich in sein Haus führte das bald eine sehr angenehme Scene darbot, indem theils seine Kinder, dieser seit sechs Monaten nicht gesehen hatte, herbeieilten, theils bald alle Angesehenen der Stadt sich um ihn versammelten, so beliebt war er. Am Donnerstag Morgen brachte mich dieser Araber noch etwa zwei Stunden weit über die Steppe dann nahm er Abschied von mir, mir seine Fürsprache beim Bascha anempfehlend. Ich ging also allein mit Hammet und einem der

meiner Wohnung am Souk oder Markte wo eine Menge von Bazars eine Art kleinen Fleckens bilden, der aber nur besucht ist, wenn Markttag ist, im Norden der Insel, und ritt durch die Pflanzungen dahin nach der von Palmen umgebnen niedlichen Behausung des Schausch, in der Absicht sogleich weiter mit ihm aufzubrechen und nach Zarzis auf dem Festlande zu erreichen. Aber er wollte mich nicht fortlassen; mit Arabischer Gastfreundlichkeit zwang er mich den Tag bei ihm zu bleiben und obgleich ungern blieb ich; am Nachmittag nachdem die Glut der Sonnenstrahlen etwas nachgelassen, spazirten wir in den Pflanzungen umher, es gesellte sich zu uns ein liebenswürdiger Greis von hoher ehrwürdiger Gestalt und Silberbarte Soliman Benayet und wir setzten uns im Sande am Fuß einer Palme und sprachen über Christ und Muselmane. Am Montag Morgen brach ich vom Schausch und Fünfen seiner Diener, einem zu Kameel, einem zu Maulthier, und dreien zu Fuß begleitet auf ritt nach dem südlichen Ende der Insel, fuhr in einer Barke über und ritt über meist unangebaute Steppen mit einigen Ruinen bis wir die ansehnliche Palmen- und Olivenpflanzung von Zarziss erreichten eines kleinen Ortes, wo mich der Grieche dem ich empfohlen war gastfreundlich aufnahm und mich nach den 1 1/2 Stunden entfernten in einer sonst der Beduinen wegen nicht zu besuchenden Gegend gelegnen Ruinen einer ansehnlichen Römischen Stadt geleitete. Am Dienstag Morgen geleitete mich der Schausch noch vier Stunden weit und ließ mir dann nur noch zwei Mann außer meinem Diener Hammet, die mich erst über d [ie] weite Ebene wo uns eine giftige große Schlange anfiel, die wir tödteten zerschnitten und um uns d [ie] Götter günstig zu machen durch ihre zu beiden Seiten des Weges gelegten Stücke hindurchritten, dann die steinige Landzunge entlang führten, an deren Ende wo Insel den großen See mit dem Meere verbindenden Canäle den Weg hemmend, ein vom Bey zur Beaufsichtigung der Quarantäne angestellter schon halb verwilderter aber sehr freundlicher Franzose, der zugleich hier Hasen jagte um mir in dieser nackten armen Gegend einen Bissen zu geben, in seinem Boote aufnahm und nach der Insel führte, worauf die halb aus Stein halb aus Palmenzweigen gebauten

wenn ich berechnete den Tag, wo Ihr meinen Brief wol erhaltet würdet und mich mit Euch freute, weil ich weiß, daß Euch meine Briefe eine kleine Freude machen. Aber was hilfts, Gott sei gepriesen, daß nichts Andres der Grund Eures Schweigens war, weiß ich doch, daß Ihr lebt und mich liebt. Und was für Beweise gibts Du mir, zu guter, liebreicher Papa; nicht allein einen Brief voll Liebe und Freundlichkeit schickst Du mir, sondern auch fast eher als ich Dich bat, eine neue Unterstützung zu meiner Reise; während Alles umher kargen muß, während Du selbst nicht weißt das Geld zu deinen nothwendigen Ausgaben herzunehmen, opferst Du eine neue Summe auf für die Belehrung Deines Söhnchens. Ich kann Dir nicht sagen und will Dir nicht sagen, wie ich Dich liebe, ich hoffe daß von dieser ungeheuren Reise zurückgekehrt und zu einem ganzen Kerl gemacht, an Kenntnissen und Erfahrungen reich ich Dir meine Liebe beweisen kann. Ich erhielt hier in Taraboloss das Creditiv von London das ich der Güte Berckemeyers zu verdanken habe und es wandert nun mit mir durch die Wüste, durch die göttlichen Ruinen Cyrenes bis nach Egypten. In wenigen Tagen gehts wieder los. Hier wie ich empfangen, wie liebreich, wie ehrenvoll, kann ich Euch nicht sagen. Von London aus war ich dem Arzt des Baschas u [nd] Freund des Englischen Consuls, Dickson empfohlen. Diesem hatte ich von Malta aus ehe ich nach Tunis zurückkehrte, meinen Brief geschickt und so durch seine Vermittelung hatte der Bascha dem Kaid von Zoara dem ersten Orte in diesem Baschalik nach der Gränze von Tunis zu Ordre gegeben, bei meiner Ankunft Alles zu meinem Befehl zu stellen Aber eben bis hierher war einige Gefahr und nicht unbedeutend; jedoch die Götter sind mir nicht ganz ungünstig. Ein Grieche in Djirbi Cutulomar, dessen Haus gesegnet und dessen Name bekannt sei schickte einen Boten aus und empfahl mich einem mächtigen Araber Seid Bou Semmin, gab nur einen andern Brief mit und vereint mit dem Consul und dem Chalifen von Gabes bestimmte er den Schausch der Urganna und anderer mächtiger Arabischer Tribu mich in eigner Person an die Gränze zu begleiten.

Mit der ganzen Eigenthümlichkeit also der reichen Lotophageninsel bekannt brach ich am Sonntag Morgen auf von

Wüste umgebnen Oase macht. Uebrigens sind die Bewohner nicht sehr friedlich gesinnt, sondern die Bewohner der beiden Oerter führen oft mit einander Krieg, und man erwartete eben jetzt einen neuen Kampf wegen des Flußdammes, woran die Bewohner des einen Ortes nicht mitarbeiten wollen. Ueberhaupt merkt man hier wie nahe man dieser großen Wüste ist, wo räuberische Horden sich fortwährend bekriegen und die Reisenden, wenn sie ihnen nicht zu stark sind, plündern.

Djirbi den 28 sten. jetzt bin ich schon beinah 3 Tage auf dieser herrlichen Insel, die fast nur Ein Garten ist und eine ununterbrochene Reihe niedlicher Landhäuser und die bei besserer Regierung ein wahres Paradies sein könnte. 2 kurze Tagemärsche über weite wasserlose, nur von kleinen fruchtbaren Stellen wie die Palmenpflanzung des Städtchens Serrat, wo ich die Nacht blieb, unterbrochene Steppen und eine kurze Ueberfahrt haben mich auf dies liebliche Eiland versetzt, wo ehedem des Odysseus Gefährten ihre Heimath vergassen.

Taraboloss d 5 ten. Hier, hier herzlich Geliebte, wohin mich ein Monat Marsch von Tunis gebracht hat, erhalte ich endlich wieder einige Zeilen von Euch, hier endlich erfahre ich, daß Ihr noch lebt, daß Ihr vergnügt und wohl seid und daß Ihr mich noch liebt. Gepriesen sei das Schiff, das mir die Briefe gebracht, gepriesen das Meer, das das Schifflein glücklich und unbeschädigt hier an den Hafen geführt hat. Weiß Gott wie oft ich auf meinem Rappen sitzend über weite von Palmen unterbrochenen und von warmer Sonne beschienenen Steppen dahinreitend oder auf der Matte unter dem Zelte dahingestreckt an Euch gedacht habe- unter welcher Form, in welchen umständen kann ich Euch nicht sagen, aber Ihr könnt wol denken, daß die Gründe die ich mir für Euer viermonatliches Schweigen angab, nicht die erfreulichsten waren. Und nun Ihr über alle Massen Geliebten und mich über alle Massen Liebenden, da seh ich nun wie Ihr nicht weniger als ich auf Eure, Ihr auf Meine Briefe gewartet habt, trübselig gedacht habt, wie es mir denn wol geht- freilich mir unbegreiflich, wie oft hab'ich mich also getäuscht

daß ich weder nach Hedra noch Spaetla noch Gafsa könnte, sondern einen ganz andern Weg nehmen und mich nach Kairuan wenden müßte. So also hemmte erst das Wetter, dann da nun prächtige Wärme eingetreten war, der Aufruhr der Beduinen meine Reise und ich mußte einen der interessantesten Theile aufgeben; nachgelassen hab ich Nichts um meine Pläne auszuführen, vielmehr führte mich mein Unmuth zu weit. Was halfs, ich saß am folgenden Morgen auf und ritt über eine Ebene dann durchs Gebirge mit prächtiger Aussicht bis spät nach Sonnenuntergang, ritt den Folgenden Tag und stand am nächsten Morgen kurz nach Sonnenaufgang vor den Thoren Kairuans, die für mich Roumi dieses Mal ohne besondern Brief des Bey, da ich nicht daran gedacht hatte, dies Mal wieder hierher verschlagen zu werden, nicht offen standen; ich schickte also meine Soldaten hinein um unsere Provision an Datteln und Brod zu erneuen und brach dann nach langer trauriger Ueberlegung was ich thun sollte, geradewegs hierher auf, wohin mich über eine weite und von räuberischen Beduinen bewohnte Ebene im ununterbrochenen Marsch von 3 und einem Tag gebracht hat, auf dem unsere Nahrung wie vorher Brod Datteln und Kusksi war, zum Trank aber nichts Andres als schmutziges Pfützenwasser vorhanden war.

Gabes ist ein höchst eigenthümlicher Platz, ich glaubte plötzlich nach Indien versetzt zu sein, so eigenthümlich erschien mir d [ie] Umgebung als ich durch die in großer Ordnung angelegten Palmen - pflanzungen,zwischen denen das Getreide in vollem Grün prangt, auf schmalen Wegen hinritt; mitten zwischen diesen Palmengärten ist das Städtchen oder vielmehr die Städtchen angelegt, denn Gabes besteht eigentlich wie viele Ortschaften hier im Djerid aus mehrer ganz getrennten Oertchen und der leichte Character dieser niedrigen offnen fast nur aus Hof und Halle betehenden Häuschen entspricht vollkommen der Umgebung. Der ganze Anblick dieser Landschaft ist über alle Maßen lieblich und ich war vollkommen entzückt als ich Heute zwischen diesen Gärten dahinritt um der Arbeit der Bewohner dieses Städtchens zuzusehen, wie sie bei Paukenschlag und mit ungeheurem Geschrei einen Damm aufwerfen im Fluß, der durch die Bewäßerung ihrer Gärten den ganzen Reichthum dieser von einer

Teboursek, wo ich auch den dritten Tag blieb um das Städtchen selbst kennen zu lernen und die benachbarten großartigen Ruinen von Dugga zu besuchen. Diesen Tag brach leider der Regen los und vereitelte mein Bemühen ein Daguerrotyp zu nehmen; es begann eine traurige Zeit, 6 Tage wenig geeignet zu einer solchen Reise. Im Regen ritten wir den vierten Tag über die Ruinen verschiedener Städte bis uns ein Beduinenzelt in seinen Schutz nahm und erreichten von einem kalten Wind fast erfroren nach gut vierstündigem Ritt den folgenden Tag die in Bergen gelegen und an einem Berg hinauf gebaute immer mehr verfallende Stadt Keff mit einem starken und wegen seiner Nähe an der Algerischen Gränze höchst wichtigen Fort. Hier wurde ich gut aufgenommen und der Kahir (sic) die mächtigste Person im Beylick nach dem Bey schenkte mir ein sehr schönes Pferd, ich ihm meine Uhr (Ihr werdets mir hoffentlich nicht übel nehmen). Das Wetter war gräßlich, kalt und der Regen goß; ich brach dennoch den eilften gegen Mittag auf aber es war ein höchst unerfreulicher Marsch; wir blieben bei den Beduinen von Larbus dicht bei Ruinen die ich am folgenden Morgen besuchte aber durchnäßt bald wieder ins Zelt zurückkehrte, und wir machten auf sumpfartigen Wegen an diesem Tage nur 2 gute Stunden, wo wir uns durchfroren und durchnäßt unter leidliches Obdach flüchteten, wo ein Beamter des Bey mich freundlich aufnahm. Ich hatte durch dies Wetter viel kostbare Zeit verloren aber es war jetzt auch vorbei, es regnete freilich auch noch am folgenden Tage aber doch nicht fortwährend und die Sonne trocknete wieder; über mehre zum Theil sehr interessante, selbst noch Phönicische Ruinen kamen wir bis Magrawah nach dem in Bergen gelegene Sitz des Kaid der Oueled Eier, nur 30 miserable Häuser. Von hier aus besuchte ich Hammam mit seinen alten Gräbern und entzog mich mit Mühe den fünfzehnten der gastfreundlichen Freundlichkeit des Kaid; die Besichtigung der Reste von Maktar ließ mich nur bis zu einem 3 Stunden davon entfernten Douar kommen, von wo uns 6 Stunden Marsch am folgenden Tag nach dem Gezelt des Chalifen der Madjen brachte, wo ich zu meiner Verzweifelung die Gewißheit erhielt,

Gabes d. 23 sten März [18] 46

Fast einen Monat ist es her, seitdem ich Euch Lieben schrieb und Vieles hab ich in der Zeit gesehen, wenn auch nicht Alles, was ich wollte. Den fünften dieses Monats endlich, nachdem ich noch einmal das ganze Terrain von Carthago, das jetzt durch den Regen und die darauffolgende Wärme zu einem wahren Paradiese geworden war, besucht hatte und dann einen größeren Ausflug nach Benzart oder Bizerta, das einst eine sehr bedeutende Stadt mit einem vorzüglichen Hafen war und auch jetzt noch eine ganz nette kleine Stadt ist an einem großen See gelegen, und nach Matter gemacht hatte, also dann endlich brach ich nach Tripolis auf.
Ich hatte auf der Tour nach Benzart gesehen, daß sowol mein Packpferd, das ich gekauft hatte, als auch mein Diener nicht zu einer großen Reise voll Strapatzen paßten; ich schaffte mir also beide vom Halse und kaufte mir zu meinem Maulthier, sehr groß und stark, noch ein andres und nahm mir einen andern Diener, einen Araber gebürtig aus der Stadt, wo ich Euch augenblicklich schreibe und ich bin sehr zufrieden mit dieser Veränderung. Das Wetter sah drohend aus, aber was halfs ich hatte schon Zeit genug verloren und mußte endlich fort. Ich brach also auf und richtete meinen Lauf erst nach Keff, das prächtige und einst ungemein bevölkerte Majerdathal hinauf reich an Ruinen großer bedeutender Städte. Die erste Nacht schlief ich in einem kleinen Städchen am Flusse, Mejaz el Bab, passirte den folgenden Tag eine sehr schöne Gegend und das etwas ansehnlichere Städtchen Testour mit seinen Ruinen und nachdem ich die großen Trümmer der großen Römischen Stadt Tunga besucht hatte in einer durch Kurven gefährdeten Gegend, erreichte ich das in prächtiger Berggegend gelegen Städtchen

vor Kalibia, dessen auf einem schildähnlichen Hügel gebautes Castell weithin wie eine Insel sichtbar ist, und blieben so fast den ganzen Tag, während wir bei der großen Meeresstille eine außerordentliche Menge Fische fingen; am Abend endlich kamen wir ans Cap hinan aber erst Donnerstag Morgen umkreuzten wir es glücklich und trieben nun bald schneller bald langsamer je nach dem oft wechselnden Wind nach Südwesten hinüber bei all den besuchten Küsten vorbei; wir glaubten gewiß wenigstens Anker zu werfen am Abend vor Tunis, aber der Wind ging uns aus und der in der Nacht vom Lande her wehende Wind zwang uns nach dem gegenüberliegenden Cap Carthago zu gehn und Anker zu werfen. Von hier hatte ich heute Morgen, nachdem ich in der Nacht diesen schönen Golf im Mondschein gesehen hatte, den prächtigen Anblick der von den ersten Sonnenstrahlen vergoldeten Hügel und Küsten worauf einst das mächtige Carthago stand. 6 Stunden gebrauchten wir um von hier hinüberzukreuzen nach dem Ankerplatz vor la Goletta dem Hafenstädtchen von Tunis und endlich um 1 Uhr stand ich wieder auf festem Land und unter Englischem Schutz mancher Unannehmlichkeiten überhoben saß ich bald darauf in einem Cabriolet und fuhr am See entlang durch die jetzt mit frischem Grün prangenden Felder und der ganze Anblick dieser Gegend füllte mich mit wahrem Entzücken und ich freute mich darauf nun bald wieder zu Pferde dieses jetzt durch die Regenzeit verjüngte Land mit seinen Städten und Ruinen zu durchreiten; und so denke ich durch eine zweite Land- und eine freilich unbeabsichtigte Küstenreise dieses schöne einst unendlich wichtige Land durch und durch kennen zu lernen. In höchstens 5 Tagen gehts wieder los und bald komme ich nun wieder in ein andres Land sowol jetzt als einst und neues Material zum Lernen und Studiren habe ich vor mir. In Tripoli schon, wohin ich von Malta aus Ordre gegeben habe, denke ich Briefe vorzufinden. Hast Du schon bei Empfang dieses Briefes einen Brief für mich nach Alexandrien mit einem Creditiv nach Malta geschickt, so bitte ich Dich jedenfalls ein Dublat mir **direkt** nach Alexandrien zu schicken, Adr. Carlo Lanzoni.

Den 22 sten. Vielleicht habt Ihr geschrieben und weiß Gott der Brief ist hierher gekommen und der Consul hat ihn nach Malta zurückgeschickt, während ich schon auf der Fahrt hierher war. Jedenfalls schreibt mir im nächsten Brief was für Briefe an mich abgegangen sind. Ich erwarte Briefe von manchen Freunden und kann mir kaum denken daß sie nicht geschrieben haben. Lebt wohl, herzlich wohl lieben Leute und zürnt nicht auf mich.

Euren Heinrich

obgleich wir alle unsere Segel einzogen, nach Süden hinunter, während große Wogen über das Schiff wegschlugen und zusammen mit dem heftigen Regenguß, den Aufenthalt höchst unerfreulich machten; ich blieb ruhig in meiner sargähnlichen kleinen Behausung auf dem Verdeck liegen, das die Wellen manchmal zu zerbrechen drohten und stellte verschiedenartige Betrachtungen an. Der dichte Nebel verhinderte den Capitän genau zu wissen wo er war und so kamen wir noch weiter hinunter; endlich Sonnabend Morgen bei hellerem Wetter gingen wir zu Anker in seichtem und daher geschützten Fahrwasser bei dem Cap Capudia oder Bourdj Kadidja zwichen Mehedia und Sfakes, wo ich auf meiner Landtour gewesen war. Hier geschützt vor großen Wellen lagen wir bei schönem Sonnenschein, ich meist studirend, die Bootsleute Fische fangend und zuweilen deren ganz herrlichen, die uns einen gar prächtigen Schmaus bereiteten, wie ich denn überhaupt in Hinsicht des Essens es auf diesem Schiff ganz gut hatte; 2 Schafe gaben mir sogar jeden Morgen frische Milch und überhaupt war unser Schifflein, auch mit zwei Reihen Orangenbäumen geschmückt, an Mannichfaltigkeit der Geschöpfe,die es mit sich führte, eine wahre Arche Noahs. Am Sonntag Nachmittag kam ein türkisches Schiff an uns heran das sechs Tage vor uns abgesegelt war und auch nach Tunis wollte, nun aber des Windes wegen nach Sfakes ging; mit ihm schrieb ich nach Sfakes und so nach Tunis und diese Zeilen kamen wirklich eher dorthin als ich und waren mir von sehr großem Nutzen. Am Montag Morgen machten wir uns wieder auf um die Küste wiederhinaufzufahren, aber diesen Tag und die Nacht kamen wir ganz wenig vom Fleck; am nächsten Tag ging es frischer; mit Freude begrüßte ich die mir im Einzelnen genau bekannten Küsten und Städte, vor allen Mehedia, dessen Ruinen uns in herrlicher Abendsonne aus der Ferne zunickten. Dann durchschnitten wir den Golf von Susa und lagen am Dienstag Morgen parallel mit der sehr malerischen Küste von Nabal nordwärts, die wir den ganzen Tag aus verschiedenen Stellungen anzuschauen Gelegenheit hatten, da wir fast ohne Nutzen umherkreuzten, am Mittwoch Morgen lagen wir noch immer

Das Clima hier abgesehen von oft sehr großen Veränderungen in dieser Jahreszeit, wodurch man leicht das Fieber bekommen kann, ist wunderschön, oft ists wärmer als bei Euch im August, das Korn steht über einen Fuß hoch, so daß das ganze sehr hügellige Terrain dieser kleinen mit Städtchen bedeckten Insel mit frischem Grün bedeckt ist und oft gar anmuthige Ansichten gewährt. Wunderschön kleine hier ganz eigenthümlichen Apfelsinchen gibts *mendoline* genannt, wovon ich Euch gern eine kleine Kiste geschickt, wenn nicht Ihr selbst mir zu dergleichen allen Muth benommen hättet.

Wenn ich nicht gebunden wäre nach Tunis zurückzukehren, so wäre ich schon seit einigen Tagen nach Tripoli oder Bengasi abgesegelt, wohin ich Gelegenheit hatte. Aber ich muß nun ausdauern, es mag währen so lange wie es will. Die Stürme sind dieses Jahr hier auch noch häufiger und verderblicher als gewöhnlich.

Tunis den 20 sten. Endlich wieder hier, endlich nach langem Warten und langer Fahrt wieder hier. Mittwoch den 11 ten Nachmittags 1 1/2 Uhr ging endlich mit günstigem Ostwind die *Stella* auf der ich schon eine ganze Woche mein Gepäck hatte, und auf der ich selbst schon eine Nacht geschlafen hatte, aus dem prachtvollen Hafen um das Fort St Elmo hinaus und schnell ging es in die See hinaus an den 3 Eilanden entlang. Aber nicht lange konnte man sich mit Hoffnungen baldiger Ankunft schmeicheln, am Abend etwa 1 1/2 Stunden nach Sonnenuntergang legte sich der Wind und es dauerte die Nacht und den ganzen folgenden Tag eine Windstille, bei der wir kaum vom Flecke rückten. Am Abendspät änderte sich das Wetter der Himmel überzog sich und es wehte ein heftiger aber nicht ungünstiger Wind der uns bei Pantellaria vorbei führte und dem Cap Bon nahe brachte.
Da aber gegen 3 Uhr Morgens erhob sich ein Sturm aus Norden, machte es uns unmöglich das weit vorspringende Cap, das mit Sicilien einen Canal bildet, in dem um diese Zeit ein heftiger Sturm aus West geht, zu passiren und warf uns schnell,

ich hier zu lange. Uebrigens habe ich mich hier nun mit allem Nöthigen ausgestattet an geistigen und materiellen Sachen, so daß ich für die ganze übrige Dauer meiner Reise nicht wieder so große Extraausgaben habe, obgleich ich gern noch Manches mir angeschafft hätte, wovon ich großen Nutzen haben könnte, aber ich habe schon so zu Viel ausgegeben. Auf solcher Reise, wenn man sie recht zu benutzen versteht, sollte man eine unerschöpfliche Börse haben, dann könnte man was Ordentliches zu Stande bringen. Aber ich fürchte nur Papa ich habe die Deinige beinah erschöpft; nur aus Deinem geheimen Unwillen darüber gegen mich kann ich mir einigermaßen und doch nur schwach Dein so langes Stillschweigen erklären. Seit September habe ich keinen Brief von Dir, in welcher ganzen Zeit ich nur einen Brief von den Schwestern empfangen habe, Nichts von Euch zu Weihnacht noch von Weihnacht. Gewiß Du mußt nicht ahnen wie Du mich hierdurch kränkst, wie Du durch Trübsinn mir meine beste Zeit verdirbst, die ich viel besser anwenden könnte, um mit klarem Sinn Alles aufzufassen, was sich mir bietet. Ist es Dir ganz unmöglich, mich noch ziemlich bedeutend zu unterstützen, so mußt Du es mir offen schreiben, schickste mir nur so Viel um zurückzukommen, und ich breche meine Reise in der Mitte ab und komme zurück. Ich habe Dir das auch schon im letzten Brief geschrieben, aber ich habe Dir auch Das Andre geschrieben. Jedenfalls erwarte ich von Dir einen recht langen aufrichtigen Brief in Alexandria in Egypten bei Sgn. Carlo Lanzoni, wo ich nun jedenfalls nicht vor Mitte April ankommen werde. Du kannst ganz gewiß direkt schreiben am billigsten über London und Gibraltar, wo monatlich 2 Mal das Dampfboot nach Alexandrien geht. Den Wechsel mußt Du, wenn Du keinen in Hamburg bekommen kannst, wol in London zu bekommen suchen. Es ist eigentlich schändlich, daß man mich nicht öffentlich Etwas unterstützt, da ich nun einmal in diesen Ländern bin, ihre Beschaffenheit, ihre Sprachen und Sitten kenne, ich könnte dann ganz was Anders leisten; aber so bin ich auch Niemandem verpflichtet, Niemandem Etwas schuldig außer Dir, und Dir wiederhole ich mein Dir in meinem letzten Brief gegebenes Versprechen.

Gott und meine Waffen beschützen mich; aber von jetzt an wird das Briefsenden bedeutend ungewisser, für die nächsten drei Monate kann ich Euch Nichts Gewisses versprechen, aber Ihr sollt von mir hören. Meinen Geburtstag werde ich wol in den Ruinen Spaitlas, den ich trotz der Gefahr von den ungezähmten Anwohnern zum ersten Mal durch genauen Daguerrotyp bekannt machen will, zubringen; zuverläßig will ich den Abend beim Kouskous an Euch denken, aber Ihr sollt bei Eurem Butterbrod auch an mich denken.

Der Bote mit Euren Briefen ist noch nicht da, es dauert gar lange, glücklicherweise spielt mein Malteser die Guitarre und singt dazu ganz anmuthig und so im Schreiben vergeht die Zeit ganz schnell. Endlich kommt der Träger und bringt mir als das ganze Resultat meiner Erwartung Einen Brief spedirt vom 18 ten November enthaltend zwei Briefe der Schwestern, Nichts weiter - aber ich hoffe noch irgendwo sonst Etwas aufzutreiben, ein Paar freundliche Zeilen zur Weihnacht, sonst ists zu wenig.
Malta, den 9 ten Febr. [18] 46

Noch immer hier; noch immer blasen die Winde nur aus West und lassen mich Unglücklichen nicht nach Tunis zurück, wohin ich sehnlichst verlange. Die schönste Zeit zum Reisen in diesen Ländern geht dahin und ich muß das Geld, das ich anderswo besser anwenden könnte, hier in diesen theuren Wirthshäuser verconsumiren. Malta ist ein sehr interessantes kleines Eiland, nicht allein wegen seiner Lage und merkwürdigen Beschaffenheit und wundervollen Häfen, sondern auch wegen seiner Denkmäler aus alten Zeiten; so sind hier einige Tempel aus der urältesten Zeit, als die Phönicier hier ihre Waren stapelten, und ihren Göttern Menschen opferten, für mich ganz ungeheuer wichtig. Ich habe natürlich alles ausgemessen und gezeichnet, da es noch sehr Wenig bekannt ist. Dabei ist hier für ältere Sachen eine sehr gute Bibliothek, wo ich fleißig studire und mich fähig mache noch stets größeren Nutzen aus meiner Reise zu ziehen, so daß ich meine Zeit durchaus nicht hier verliere, aber für die kurze Dauer meiner ganzen Reise und für meine geringen Mittel bleibe

fast ganz neu ausstatten nicht allein an Kleidung sondern selbst an Wäsche, muß mir neue Instrumente, andere Bücher kaufen und selbst andere Säcke für mein Bagage. Dabei sehe ich mich vollkommen gezwungen, einen Diener zu nehmen, da ich ohne einen solchen keine Pferde selbst kaufen kann, von denen eins mein Bagage trägt, sondern immer deren mit einem Kerl miethen muß, was bedeutend viel theurer kommt für so weite Reisen, hätte ich mein Geld zur Hand gehabt, ich hätte schon längst so gethan und ich hätte Manches gespart. Außerdem zwingen mich meine Empfehlungen, wenn sie mir irgend Nutzen bringen sollen, mich in den Städten anständig zu kleiden; denn so Viel die Englichen Consuln für mich thun, sie würden Nichts thun, wenn ich mich ganz armselig benehme, wie mich mein ganz zerfetzter Hut und mein halbzerrissenes Beinkleid in Tunis Anfangs fast um allen Credit gebracht hat. Wenn ich zurückkomme und wieder zu Sir Thomas [Reade] gehe, der mich auch in sein pompöses behagliches Haus und seine zahlreiche Familie eingeführt hat und der mich auch, so ich will, dem Bey vorstellen will, muß ich nothwendig ein Bischen nett aussehen. Wenn es Dir unmöglich ist, lieber Papa, ohne große Not und Unbequemlichkeit, mir noch mehr Geld zu schicken, so bitte ich Dich herzlich, mir es frei undoffen zu schreiben, und ich muß meine Reise abkürzen; aber es wäre schade, ich müßte den interessantesten Theil, Aegypten, Klein-Asien, die Türkei und Griechenland mit den vielen lieblichen Inseln nachlassen und könnte kein ganzes Bild von diesem großen Wasserbassin liefern, dessen Leben in allen Zeiten ich zu meinem Studium gemacht habe. Ich weiß aber gewiß, daß ich etwas Tüchtiges liefern kann, wofür ich mehre Tausend Thaler zu erwerben denke, wovon ich feierlich verspreche, der Familie und den Geschwistern wieder zurückzuerstatten, was ich ihnen durch meine Reisen entziehe; wollte Gott, ich wäre im Stande, sie überhaupt glücklich zu machen. Wären meine Mittel bedeutender, ich könnte in diesen wenig bereisten Ländern noch ganz was Anders leisten; so aber bin ich überall gehemmt und an der reichsten Quelle kann ich nicht trinken. Für mein Wohl seid unbesorgt, mein Muth, mein

James Bell & Co eine ganze Kiste voll von Briefen von Euch und denen anderen Freunde zu erhalten , nach denen ich einen wahren Heißhunger habe.

Nach Tunis bin ich von Sfakes in 4 und einem Halben Tag zurückgeritten auch die Nächte zum Theil zu Hilfe nehmend, in für dieses Land schauderhaft kaltem, regnerischen Wetter auf zum Theil garstigen Wegen, in denen die Thiere oft bis ans Knie einsanken und sich mit uns weich hinbetteten. In Tunis saß ich dann einmal so recht wieder auf dem Sand ohne einen Haller Geld bei meinem verfluchten Wechsel in der Tasche, und dabei hatte ich meine Escorte für einen ganzen Monat zu bezahlen; nur durch den Credit bei Freunden bin ich aus dieser Klemme und aus Tunis gekommen, wohin ich mit der ersten Gelegenheit zurückkehre, aufsitze und mit einer guten Escorte in andererRichtung über Städte, Ruinen und Steppen nach Tripoli dahinreite, von wo ich die Ruinen und das Land umher besuche und dann entweder zu Lande durch die Wüste oder zur See nach dem Plateau Barka hinreite, einst einem mächtigen Handelsstaat, jetzt ein schönes aber meist unbebautes Land voll von Ruinen und Erinnerungen. Von dort gehts vielleicht durch die Oasen nach dem alten berühmten Nilthal, dessen Ufer ich weit hinauf zu besuchen gedenke.

Aber ________ jetzt weißt Du schon, lieber Alter, was da kommt; es ist leider ein Text, den man auf solcher Reise oft besprechen muß ____ Du kannst denken, daß mein Pariser Wechsel, den ich schon bis bedeutend über die Hälfte verreist habe, nicht noch Jahre lang vorhält, im Gegentheil muß ich Dir gestehen, daß ich mit dem, was mir bleibt, bei dieser theuren Art hier zu reisen, nur noch höchstens bis Ende März ausreiche, bis zu welcher Zeit ich bei aller Unannähmlichkeit, die es mir verursacht, Dir bei Deinen besonders jetzt nicht so großen Mitteln so außerordentlich Kosten zu verursachen, Dich bitten muß mir einen andren Wechsel nach Alexandrien zu verschaffen, worüber weiter unten das Nähere. Ich versichere Dich, daß ich fast Nichts umsonst ausgebe, aber Du hast keinen Begriff, was auf solcher Reise zu Grunde geht; ich muß mich hier wieder

den Machtbrief des Bey ausgestattet, eine Reise kreuz und quer durch dies ganze Land hin zu machen bis nach Tripolis, was mich freilich viel Geld und Zeit kosten wird, ich kann dann aber auch von diesem noch sehr wenig gekannten Lande, das einst eine ungeheure Bedeutung hatte und wer weiß wie bald wieder eine viel bedeutendere Rolle spielen wird als gengenwärtig, eine genaue historische und geographische Beschreibung liefern, die mir einen Namen machen kann und auch die Reisekosten wieder einbringen wird. Ich werde Dir das Näher davon im nächsten Brief schreiben, nachdem ich endlich Eure Briefe in Malta empfangen habe, durch deren so lang verspätete Lesung ich nur hoffe Nichts zu versäumen oder nicht zu wissen. Weiß Gott, wie es Euch und der übrigen Welt geht; ich weiß von Allem Nichts.

Malta im Lazaretto den 19 ten. So bin ich denn endlich hier, endlich auf dieser kleinen aber seit Jahrtausenden unendlich wichtigen Inselgruppe fast im Mittelpunkte des Mittelmeeres gelegen, dieses herrlichen Meeres, dessen Ufer mit ihren Baien, Buchten und Thälern mein Studium bilden, endlich vorgestern bin ich hier angekommen nach einer unendlich langweiligen und doch höchst unruhigen Ueberfahrt von Tunis von 5 Tagen und 5 Nächten, und doch bin ich noch nicht in der Stadt, sondern muß erst Quarantäne liegen, wozu ich mich in Gesellschaft eines jungen Menschen hier zu Hause, der mir sehr Viel nützt um diese Insel in kurzer Zeit kennen zu lernen, im großartig eingerichteten Lazaret einquartiert habe. Die Häfen von Malta, die prächtigsten, die es überhaupt gibt, kenne ich so ziemlich, da wir am Sonnabend Abend wegen ungünstigen Windes und Wassers nicht in den Quanrantänehafen einlaufen konnten, sondern erst in den großen Hafen, eine tiefe in fünf Buchten sich ins Land, dessen Ufer Bastionen und unbesiegbare schon im Türkenkampf berühmte Forts beschützen, hineinschlängelnde Bai, uns hineinschleppen, und gestern Morgen wieder auslaufen und hierher mußten. Diesen Augenblick wird mein Brief im Dampf durchgeräuchert, um ja keine pestartigen Substanzen in die Stadt zu bringen und dann denke ich sogleich von

gen hervortraten. Ich wurde höchst vornehm quartiert und gar prächtig mit Arabischen Gerichten im Palaste des Bey gespeist. Ueberall umher auf den kleinen gegenüberliegenden Inseln und am Ufer sind Spuren einer sehr alten Bevölkerung hier und ich nahm genaue Pläne auf. Am 24 sten verließ ich diesen Aufenthalt und ritt kreuz und quer über mehre kleine Oerter theils alten berühmten Daseins nach Mkalta, wo wir mit Mühe ein Quartier erkämpften und wo ich wie beschrieben meinen Weihnachtsabend in Gesellschaft meiner Araber zubrachte. Am folgenden Tage ritt [ich] über andere bedeutende Ruinen auf dem Cap Demas nach Mehedia, wo ich auch den 26 sten blieb und am folgenden Tage zuerst durch Olivenpflanzungen, dann über weite jetzt öde Ebene nach el Djemm ritt, dessen großes prächtig gebautes Amphitheater wir zwei Stunden weit voraussahen; am Nachmittag und am folgenden Morgen wurden Maße genommen und am 28 sten ritt ich etwas südlicher wieder dem Meere zu, übernachtete in Skurseff und ritt von dort über bedeutende Ruinen nach einem kleinen Ort Chebbah, nahe dem Ras Capudia, von wo ich der Nacht auf den 30 sten um 2 1/2 Uhr aufbrach und Zurücklegung von etwa 12 deustchen Meilen um 2 Uhr Nachmittags in Sfakes einritt, wo ich sehr gut empfangen wurde. Ich bin sehr befreundet mit dem Kaid, der mir soeben einen ungeheuren Korb voll wohlschmeckender Kuchen zum Gegengeschenk gesandt hat, von denen ich gern Mdam Möller einige herüber senden möchte, wenn die Entfernung nicht zu groß wäre. So kann ich doch diese Tage mit einigen Kuchen feiern und trete so getrost auch mit anderen Provisionen von ihm wohlausgestattet meine Rückreise nach Tunis an,die ich auf direktem Wege in 4 Tagen zurücklegen will. Denn von hier nach Malta kann ich nicht gehen, wie ich beabsichtigte, da vielleicht für einen Monat kein Schiff da ist, und außerdem dieser Pariser Wechsel bringt mich jeden Augenblick in Verlegenheit, da ich keinen Wechsel nach wahren Punkten bekommen habe. Ich werde aber wol noch recht Viel von diesem Lande hier sehen, da ich die Absicht habe, von Malta, wohin ich nun so Allah will, von Tunis gehe, sofort mit Instrumenten zurückzukehern, mir zwei Mäuler zu kaufen und mit einer Escorte und einem umfassen-

Sfakes den 1 sten Jan. [18] 46

So hab' ich wirklich nicht allein den Weihnacht-, sondern auch Altjahrsabend auf Afrikanischem Boden zugerbracht, Weihnachtabend lag ich in einem kleinen Städtchen Mkalta genannt auf der Matte hingestreckt und mit Heißhunger auf die lange ausbleibenden Kouskousschüssel wartend; als Ihr Eure Geschenke bekamt, dachte ich lebhaft an Euch in Mehedia einer alten berühmten Arabischen Stadt auf einer fast wie eine Insel umschlossenen Halbinsel mit magnifiken imposanten Ruinen einer wundervollen großartigen Mauer, die auf Kaiser Karls Befehl, der die eroberte Stadt nicht halten konnte, gesprengt wurde, jetzt ein kleiner Ort von sieben- bis achthundert Häusern aber einigem Handel; gestern nun und heute hause ich in der lieblichen Wohnung des Kaid von Sfakes einer ziemlich lebhaften Stadt mit großen weiten Olivenpflanzungen, in einem Gemach ähnlich im Ganzen denen in der Alhambra zu Granada, nur daß es passender zum Sommer als zum Winter ist; hier sitze ich nun heute Abend bei offener Thür nach dem von Säulchen und Fensterchen mit lieblichen Verzierungen umgebenen Hofe hinaus und schreibe Euch-Lieben meine Erlebnisse.

Die berühmte Susa lieblich anzuschauen verließ ich den 22 sten, nachdem ich fünf Briefe theils für Euch, theils für Andere, in die Hände des Consuls geliefert hatte und ritt in der Nähe des Meeres um die Bucht herum nach dem auf einem Cap gelegenen Misteer, dessen weiße Mauern und Minarets ich schon von Susa aus deutlich erblickt hatte. Prächtig und lieblich empfingen uns, nach einem wüsten jetzt trocknen Salzsee, an dessen sandreichen Strände nach dem Meere zu nur einige Palmen - pflanzungen prankten, unter denen hindurchreitend wir uns einige Datteln pflückten die reichen Oliven-und Feigengärten dieser Stadt, deren weiße Zinnen plötzlich aus den grünen Umgebun-

ich nun auch meine Weihnacht zu, nicht am reich mit Gaben belasteten Tische in trauter Familie, sondern wol im alten berühmten Mehedia mit meinen Mammeluken aus ungeheurer Schüssel Kouskous löffelnd, aber ich verspreche Euch ich will an Euch denken und Euch die herzlichsten Wünsche sagen. Wie lange ists, daß ich Nichts von Euch weiß; in Malta liegen hoffentlich Briefe in Fülle für mich, aber seit dem 2 ten October in Algier habe ich Nichts von Euch gelesen und es wird erst das neue Jahr kommen und ich bin noch nicht in Malta, wo ich übrigens auch nicht lange bleibe, sondern so bald möglich in die Berberei zurückkehre, die mir ganz vortrefflich behagt. Nun sinds dreizehn Tage, daß ich Tunis verließ und ich habe erst die Küste verfolgend dann kreuz und quer schon ein gutes Stück von diesem Lande gesehen; ein herrliches Land aber despotisch regiert seit Jahrhunderten, die prächtigsten Gegende verödet, die Wohnungen in Ruinen zerfallen, die Bewohner ausgeplündert. Ich aber reise hier höchst behaglich, werde quartiert und genährt auf Kosten des Beys, habe in jedem Orte eine Menge Leute zu meinen Befehlen und kann das Land in Bequemlichkeit und Genauigkeit kennen lernen.

Für die Richtung meiner weitern Reise kann ich Euch nicht Genaues angeben, schickt nur immer eine Unmasse Briefe nach Malta an James Bell, wo ich schon Ordre geben will sie weiter zu spediren und schreibt darin von allen Bekannten. Thut mir nur auch den Gefallen, meine Bücher gut in Acht zu nehmen; wollte ich hätte davon eine ganze Masse, wollte sie schon fortschleppen, in Malta kaufe ich mir ganze Bibliotheken, Alles was ich von guten Büchern über diese Länder finde. Die Abende sind lang, man hat da viel Zeit zu studiren, eben so gut wie zu Hause. Für meine Sicherheit seid sicher, ich trage jetzt auch eine famose Doppelflinte, mit der ich mir bald meinen Lebensunterhalt selbst verschaffen will. Und so lebt herzlich wol, seid gemüthlich und froh, zürnt nicht auf mich, obgleich ich es verdiene und habt mich lieb so wie ich Euch

Euer Heinrich.

Susa den 21 sten D [e] c [ember] [18] 45

Herzlichster Papa, die freundlichsten Grüße auch aus dieser kleinen anmuthigen Stadt, die ich von meinem Zimmer aus im Palaste des Bey von der Kasbah, die mit ihren weißen Zinnen und Thürmen stolz auf die unter sich hinunterziehende Stadt hinabsieht, bis ans herliche blaue Meer hinab überschaue und dahinter über das ganze Land sich erstreckend weiche Olivenpflanzungen aus denen weiße heilige Kuppeln hervorschauen und links weiter die Küste sich herumziehend bis Misteer. Und es ist eine alte berühmte Stadt voll Alterthum und Geschichte, und so gehts einen Tag wie den andern, eine interessante Stadt nach der andern. Gestern bin ich hier aus Kairuan angekommen, aus dem heiligen Kairuan mit seiner wunderhaften Moschee mit fünfhundert Säulen von rothem und schwarzen Marmor, Kairuan der Stadt Sidi Ucbahs dieses ritterhaften Kämpfers und Gründers der Arabischen Macht in Afrika, der mit seinen fünftausend Streitern fiel auf dem Saab 'gegen hunderttausende. Nach Kairuan zog ich über die weite ungeheure Ebene von Hammamet zuerst Ruinen mächtiger Städte passirend, schalfend bei den Beduinen, dann über öde Fläche. Und all dies Glück verdanke ich Dir, liebster Papa der Du Deine Ruhe, Deinen Schlaf für mich aufopferst, um mich nach meinem Triebe all diese Gegenden sehen zu lassen; und Ihr seid nun allein ohne mich entbehrt der Erheiterung die ich Euch vielleicht bereiten kann, sitzt Eure
langen Winterabende für Euch da und ich kann Euch nicht Etwas vorlesen oder Euch Etwas erzählen, vielleicht denkt Ihr jetzt an mich, theilt Euch Eure Gedanken mit, wo ich bin, was ich mache, und ich bin hier in anderm Welttheil, anderm Himmel, anderen Menschen, bin ganz allein hier ohne Bekannten und doch bin ich hier oft ganz glücklich, bin vergnügt mit meinen Arabern, freue mich über den köstlichen Himmel, die prächtigen Palmen und die anmuthigen Thürme. Und hier bringe

höchst verschieden von dem Marokkos und Algeriens, friedlich und freundlich. Wenn nicht meine Reise einmal für ein so weites Terrain bestimmt wäre und besonders für die Küste, so würde ich mich daran machen, dieses Land nach allen Seiten zu durchkreuzen um die ganze einstige fast unglaubliche Blüthe desselben in seinen noch unzulänglich gekannten Ruinen darzulegen und zu zeigen, was dieser Strich einst wieder werden kann und werden muß. Jedenfalls aber sehe ich einen guten und nicht den unbedeutendsten Theil desselben und kann wenigstens ziemlich genaue Nachricht von den übrigen einziehen. Was ich aber auch sehe, Sie und nach Ihnen Colquhoun und Sir Thomas sind es, denen ich es zum großen Theil verdanke; denn in einem Lande wie hier ists unmöglich ohne Briefe zu reisen. Möge es mir in Tripoli und den übrigen Ländern auch so gehen. Nebenbei theile ich Ihnen mit, daß gegenwärtig der Engländer von Malta, Richardson von Gomares nach Tembuktu zu gehen beabsichtigt.

Mit den inningsten Wünschen für Sie und Ihre Familie empfiehlt sich Ihnen.

H. Barth Dr.

die die Franzosen in ihrer Colonisirung begehen glaube ich daß diesem prächtigen Land eine bedeutende Zukunft bevorsteht und wundere miche, daß nicht die Deutschen Auswanderer in größerer Anzahl hier herüber kommen, die Besitznahme ist sicher trotz aller vereinzelten Erhebungen und Abfälle; diesen Augenblick macht man um Algier sehr starke Befestigungen, wohl mehr mit Rücksicht auf England als auf die Araber, so wie in Algier überhaupt eine außerordentliche Thätigkeit herrscht. Herr Ricken bewieß mir sehr viele Freundlichkeit, war aber natürlich nicht im Stande mich den Autoritäten zu empfehlen Ganz anders vertreten bin ich dafür in Tunis; denn wie ich viele dort ansässige Europäer habe sagen hören, vermag Sir Thomas Reade mehr als der Bey selbst. Seiner Fürsprache beim Bey verdanke ich eine beinah fürstliche Aufnahme hier in allen Städten, ich wohne in den Häusern des Bey, wo mich der Schech bewirthen und mir seine Ukile aufwarten müssen, meine drei Soldaten, die ich freilich bezahlen muß, verschaffen mir überall Zutritt außer in die Mosdjenen und so denke ich soll meine Reise an dieser interessanten Küste nicht ohne höchst bedeutende neue Mittheilungen werden, wenigstens habe ich auf dem bis jetzt besuchten Strich vom alten Utica hierher immer der Küste folgend die größten Lücken in den früheren Reiseberichten gefunden; außer der Küste steht mir auch das nur sehr wenigen Christen zugänglich gewesene Kairuan offen und auch manche andere Plätze ins Land hinein nehme ich mit. Freilich geht meine jetzige Amrah nur bis Sfax, von wo ich erst nach Malta gehen muß, ich hoffe aber im Stande zu sein, die ganze Küste bis Tripoli zu Lande zu besuchen. Uebrigens ist das Land durch die tolle Wuth des Bey eine große Armee auf französischem Fuß zu haben, obgleich die Nähe der Franzosen in Algier wohl der Beweggrund ist, in einem kläglichlen Zustand, ganze Dörfer sind von ihren Einwohnern verlassen, Felder die früher Tabak producirten liegen seit dem Monopol des Bey brach, nicht ungünstige Häfen sind für den Verkehr versperrt: das Volk dabei ist

Hamamet den 16 ten Dc. [18] 45

Verehrter Herr,

Hier im vollen Genuß der Vortheile, die mir Ihre Briefe verschafften werde ich lebhaft an Sie und meine Verpflichtung gegen Sie erinnert und benutze so den ersten Tisch, den ich auf meiner Reise in diesem Berbernstaat antreffe um Ihnen einige Mittheilungen zu machen, die Ihnen zeigen sollen, daß ich meine Zeit und Ihre Empfehlungen nicht schlecht anwende.

Nach Afrika bin ich von Alicante aus zurückgekehrt, nachdem ich noch das übrige Stück der Spanischen Küste besucht und besonders außer dem im Abstecher besuchten unwiderstehlichen Granada dem interessanten aber augenblicklich in Verzweiflung abgestorbenen Hafen von Carthagena meine Aufmerksamkeit geschenkt hatte. In zweimonatlichem Aufenthalt habe ich die ganze Küste Algeriens und auf manchen Stellen das Land ziemlich weit hinein besucht, obgleich wegen der allgemeinen Wiedererhebung zur Erkämpfung der Unabhängigkeit der Augenblick höchst ungünstig war; besonders aufmerksam habe ich Scherschell das alte große Caesarea, dessen Ruinen die Araber zu den Wundern der Welt zählten, und das sich jetzt besonders durch Deutsche Colonisten zu einer ganz ansehnlichen Stadt erhebt, wozu die freilich langsam vor sich gehende Wiederherstellung und Erweiterung des alten Römischen Hafens wo ich noch ein altes Römisches in der Erde Jahrhunderte vergraben gelegnes kleines Schiff sah, ihm bedeutend förderlich ist, und das augenblicklich von den Franzosen ganz vernachlässigte Bougie, wo ich zehn Tage blockirt lag ohne Möglichkeit weder zur See noch zu Lande fortzukommen, mit vortrefflicher Rhade und der natürliche Hafen von Setif mit bedeutenden Römischen Ruinen aber noch imposanteren aus der Zeit der Araber, dem eilften Jahrhundet wo es fast die blühendste Stadt in ganz Maghreb war. Ungeachtet der ungeheuren Fehler

Dampfboot bot, das der Sicherheit halber die Correspondenz zu See gebracht hatte, und schwamm so in schneller von heftigem Wind begünstigter Fahrt im Angesicht der Küste nacht Tunis. Des Weitern wißt Ihr.

Auf solcher Reise vergißt man fast alle Häuslichkeit, ich hatte beinahe Weihnacht ganz vergessen, zu welcher Zeit Ihr vielleicht diesen Brief bekommt. Ich schicke Euch Allen also die herzlichsten Weihnachtsgrüße, und bedaure nur daß ich nicht bei Euch sein kann; je froher Ihr seid, je lieber ist mirs; wenn ich daran denke, will ich ihn auch feiern, besonders wenn ich dann gerade in Malta, wie es nicht unmöglich ist. Schlafe ich aber dann bei meinem Maulthier, hingestreckt auf einer Matte mitten zwischen Arabern und Berbern so will ich wenigstens lebhaft an Euch denken. Hätte ich mehr Geld bei mir, so schickte ich Euch noch ein Paar Tunisische Fabrikate die guten Ruf haben oder eine Schachtel Dattel, aber ich muß Haus halten, da ich noch nicht nach Malta will um nicht meinen Reiseplan zu verderben. Habe ich Zeit so schreibe ich noch den einzelnen Hausgenossen, sonst allen hier insgesamt Gruß und Wunsch; finde ich dann Briefe von ihnen in Malta, so sollen sie auch was haben; jetzt habe ich keine Zeit. Sonst noch allen Freunden die freundlichsten Grüße.

Euer Heinrich

occupirten, tief in der Bucht gelegenen Collo und landete Abends des andern Tages in Philippeville, eine auf den Ruinen einer Römischen Stadt ganz neu gegründeten und als Hafenstadt von Constantin schon ganz ansehnlich gewordene Stadt, deren eigentlichen Hafen aber 1 kleine Stunde gegenüber bei Stora ist. Ich untersuchte die Ganze sehr reiche Gegend weit und breit, bestieg einige Berge, und nachdem ich so mich mit dem Lande bekannt gemacht hatte, machte ich [mich] nach Constantin, das ich nach nicht unbedeutendem Unfall erreichte. Constantin ist interessant als alte Hauptstadt der Numidischen Könige, dann als große Römische Stadt, von der noch viele aber, außer einigen großen Bögen eines Aquaductes, uninteressante Ruinen erhalten sind, besonders aber wegen seiner höchst einzigen Lage auf einem vom Fluß tief unten in schmaler Schlucht fließenden Rammel auf drei Seiten umgebenden Fels gelegen bis an dessen Rand hart hinan die Stadt liegt; es ist eine recht Arabische Stadt mit engen krummen Strassen voll von Handel und Getreibe wohin täglich Karawanen aus dem Innern Afrikas kommen. Sonst Einzelnes ist hier gar nicht, die Umgegend erst hügelig dann aber kahl und ohne einen einzigen Baum. auf einer Seite der Stadt aber ein recht romantisches kleines Thal, in das der kleine Fluß in Wasserfälle hinabstürzt. Da ich augenblicklich nicht vermögend war um weiter ins Innere vorzudringen was ich, obgleich es von meinem Hauptzweck etwas abliegt, überaus gern gethan hätte, brach ich in Gesellschaft zweier Franzosen, deren Einer aus Rio und Freund von Theremin nach Bona auf, wohin wir über die Ruinen vieler Römischen Städte, über die überaus merkwürdigen Schwefelquellen von Mascoutin, über die neue Stadt Guelma, in 3 1/2 Tagen gelangten. Bona ist auf den Ruinen des alten mächtigen Ubbo, später Hippo an der Mündung der Seybouse, hat eine sehr liebliche Lage nach Westen, wo sich in der Entfernung einer Stunde ein Gebirgsarm von Süden ans Meer zieht, aber schlechten Hafen. Von hier aus wollte ich eigentlich zu Lande nach Tunis gehen, da aber der Französische Postbote vor einigen Tagen ausgeplündert war, so benutzte ich die Gelegenheit, die mir ein Französisches

thago, die an der eignen Quelle nicht genug hatte. Die Araber fanden diese Wasserleitung bei der Eroberung des Landes und restaurirten wo sie beschädigt war und zählten sie zu den großen Wundern der Welt und sie ist in der That bewundernswürdig und großartig. Das Städtchen selbst liegt höchst anmuthig am Abhang des Berges mit seinen weißen Häusern und Moscheen weit hin durch das sie umgebende Olivenwäldchen sichtbar; hier übernachtete ich zwei Nächte im Fonduk und bezahlte für mich, den Maulthierführer und seine beiden Maulthiere etwa 6 Schilling im Ganzen, hatte aber auch nicht eben große Bequemlichkeiten, sondern schlief zu ebner Erde auf einer Matte und zehrte aus meinem von Tunis mitgenommenen, nicht eben sehr großartigen Proviant. Vom Gipfel des Feslen, den ich nicht ohne unsäglicher Mühe erkletterte hat man eine Aussicht weit und breit über Land und Meer.

Morgen nun gehts nach dem Platz des alten Utica, dessen Ruinen leider der Fluß Mejerda mit der aus dem Innern des Landes herbeigeschwemmten Erde bedeckt hat, und übermorgen verlasse ich dann Tunis um über die berühmtesten Oerter als Hammamet, Susa, Kairuan nach Sfax hinunterzugehen, von wo ich, wenn ich sogleich ein Schiff nach Malta finde, mich erst dorthin einschiffe, sonst noch weiter nach Spaitla ins Innere und Gabes an der Küste marschiere; ganz zu Lande nach Tripolis will man mich nicht gehen lassen, weil es zu unsicher ist, sonst wäre es mir überaus interessant, da es ein fast unbekanntes Land, in dem eben wegen der Unsicherheit noch kein Reisender hier gewesen ist.

Ihr wißt jetzt wo und wie ich hier bin, nun meine Reise von Bedjaja hierher. In dieser wegen seiner Lage und seiner Geschichte interessanten Stadt mußte ich also, nachdem ich Euch geschrieben hatte, noch fünf ganze Tage verharren, schiffte mich dann in der Nacht ein, defilirte, um nicht ein gleiches Schicksal zu haben bei dem zur Zeit der Römer höchst wichtigen Djidjel vorbei, wo die mächtigen Seeräuber Harrudsch und Heiraddin zuerst Fuß faßten, dann bei dem von den Franzosen gar nicht

Tunis den 26 sten Nov. [18] 45

So bin ich doch schon ein Wenig weitergekommen, ein klein Bischen nach Osten vorgerückt und aus einem schon halb Europäisirten in einen noch unabhängigen Berbereistaat übergesiedelt, der aber auch schon angefangen hat, sein halbabgestorbenes Orientalisches Leben mit Französischen Formen zu übertünchen- was aber wichtiger ist, ich sitze hier dicht bei den Ruinen Karthagos, jener Stadt, die einst das ganze Mittelmeer mit ihren Flotten bedeckte und Griechen und Römer trotzte; schon habe ich seine weit und breit zerstreuten Ruinen durchstreift und das ganze Terrain dieser ungeheuren Seestadt mit seinen Häfen und Mauern wiederzubeleben gesucht. Das ganze Land hier ist mit den Ruinen der berühmtesten Stadt bedeckt und ich denke ein gutes Stück davon binnen Kurzem zu durchstreifen. Tunis selbst ist eine große Stadt an Einwohnern beinah gleich unserm Hamburg, sonst ziemlich davon verschieden, die Strassen fast alle eng und krumm, dafür so ziemlich voll todtem Aas, die Häuser fast alle nur Parterr und platt, dabei liegt die Stadt an einem großen sumpfartigen See, einst vortrefflicher Hafen, jetzt seicht und nur eine [....] hat die Verbindung mit dem Meer, mit dem er durch einen Canal zusammenhängt. In der Stadt selbst ist außer dem ganzen Getriebe Wenig zu sehen, und die nächste Umgegend ist öde und langweilig, dafür ist sie mir nur Mittelpunkt zu meinen Excursionen, die das herrliche Wetter, das wir augenblicklich hier haben, merkwürdig begünstigt.

Tunis den 30 sten. So eben bin ich von einer 3 tägigen Excursion nach Zawwan (Sauan) zurückgekommen, etwa 9 Meilen von hier nach Süden, am Fuß eines steilen Felsens gelegen, von dem das herrlichste Wasser herunterkommt. Die Römer, wenn nicht schon die Carthager, lernten diese reiche Quelle kennen, bauten der Göttin dieser Quelle, hart am Fuß des Felsen einen großen Tempel, der noch meistentheils erhalten ist, und führten das Wasser in dieser ungeheuren Entfernung in einem noch jetzt zum Theil erhaltenen Aquaduct nach der Riesenstadt Car-

recht benutzen will, ich kann nicht anders. Wo ich sparen kann, thue, aber anständig bin ich gezwungen zu reisen, und Du kannst Dir nicht denken, was auf einer so großen, wissenschaftlichen Reise auszugeben und zu kaufen ist. Hier in Algier habe ich schon 100 francs für Bücher, Kleidungsstücke und Instrumente ausgegeben. Ich werde nun wol erst von Tripolis nach Malta gehn, wo ich bei James Bell & C. Briefe erwarte. Also Molli Braut?

Aus Deinem Brief lieber Papa sehe ich auch zu meinem großen Leidwesen daß außer dem zweiten Brief nach Barcelona, den ich nun requiriren werde, noch ein Brief nicht in meine Hände gekommen ist, wenn anders Du mir wirklich schon irgendwo geschrieben hast, was ich aber stark bezweifle, daß Ihr die Früchte erhalten habt, noch nach Gibraltar schriebst Du das Gegentheil.

Den Brief an Danzel schickt an seine Eltern, die jetzt freilich nicht mehr auf dem Kraienkamp wohnen, und den Brief nach Kiel thut bitte frankiren.

sen ungeheures jetzt halbverfallenes Arsenal ich in der Begleitung eines verzweifelten alten Arbeiters durchwandelte und die mit Castellen besetzte Berge umher erkletterte, um die ganze höchst wichtige Küste zu übersehen; am Abend stieg ich wieder zu Schiff und war in Morgen in Alicante, wo mich Herr Christiernin, dem mich Berckemeyer empfohlen hatte,mit außerordentlicher Freundlichkeit aufnahm, so auch unser Consul Harmsen; aber sonst war ich hier unglücklich, indem mich der heftige Ostwind acht Tage in dieser freilich als gegenwärtiger Handelsplatz recht bedeutenden, sonst aber wenig interessanten Stadt zurückhielt. Zwei Nächte brachte ich vergeblich an Bord zu, einmal liefen wir wirklich aus mußten aber wieder umkehren, endlich am Montag Morgen ging es mit gutem Winde auf diesem kleinen mit hundert spanischen Auswanderern besetzten Schifflein, wo ich aller Bequemlichkeit entbehrte fort und wir hatten Hoffunug schon am nächsten Abend Algier zu erreichen aber nach zurückgelegtenFünfzig Meilen trat fast vollkommene Windstille ein und erst gestern Donnerstag Morgen waren wir hier im Hafen.

Mein Aufenthalt hier ist mir nun auch versüßt durch die drei lieben Briefe, die ich so eben vom Consul geholt habe. Also wieder die alte Geschichte, Du allein, Mama wieder im alten Getreibe und Ihr wieder in der alten kleinen Behausung; und in dieser Lage müßt Ihr Euch noch der aufheiternden Gesellchaft des sonst Taugenichts Ludwigs berauben. Und das Gechäft geht wirklich so schlecht, alter Papa und Du hast Schwierigkeit durchzukommen und Dein lieber Sohn macht eine so ungeheuer kostspielige Reise. Was wirst Du sagen lieber Papa; die verdaguerrotypirten 300 francs und die Wechsellosigkeit bis auf Malta, freilich nicht meine, sondern des Pariser Bankiers Schuld, hat mich gezwungen, von dem Credit Berckemeyers in Alicante Gebrauch zu machen und um nicht bestimmt zu sein meinen Reiseplan zu ändern um eher nach Malta zu kommen, habe ich hier 200 duros aufgenommen, d. h. 1053 francs. Du kannst glauben, daß es mir schmerzlich ist, stets und stets Dir Kosten zu machen, aber versichere Dich, wenn ich meine Reise

Algier den 3 ten Octob. [18]45

Erst gestern, lieber Papa, erst gestern an Eurem Hochzeittage, wo Ihr gewiß an mich dachtet, erreichte ich wieder die mir nun schon heimische Küste von der mich Umstände und widrige Winde länger fern gehalten, als ich geglaubt hatte, dieses Mal zu längerem Aufenthalt. Schon habe ich die Stadt und Umgegend auf einige Stunden kennen gelernt, und ich muß Dir sagen, daß es ausgezeichnet schönes, liebliches Land ist, in der die Europäische Bildung und Manier die einheimische stets mehr und mehr zurück drängt. die größte Thätigkeit herrscht überall, die Stadt wird in großartigem Maßstabe erweitert, der Hafen zu einem der pompösesten gemacht, die es gibt, aber wie Ihr in den Blättern lesen werdet, die alten Besitzer des Landes wollen sich nicht so leicht bändigen lassen und der sonst nicht mehr ungewisse Besitz des Landes kostet den Franzosen viel Blut und Geld. Das Clima ist köstlich; wir hatten heute über dreißig Grad und ein Wetter, bei dem Ihr wahrhaftig noch nicht nach der Stadt gezogen sein würdet. In Granada, meinem schönsten Aufenthalt in Spanien, blieb ich im ganzen eilf Tage theils wegen der Kunstsachen,theils wegen des Daguerrotypirens, das ich nun ordentlich verstehe und nicht mehr Gefahr laufe, meine Maschine zu ruiniren, so daß ich Dir erst jetzt recht dankbar bin für dieses kostspielige Geschenk; was ich für das Erlernen bezahlt habe, ist freilich Viel aber nicht zu Viel, wenn man in Anschlag bringt, was man durch eignes Probiren ruinirt. Von Granada machte ich einen höchst angenehmen Ritt durch Gebirg und dann im lieblichen Flußthal nach Almeria, in welcher dem Aussehen nach noch ganz Arabischen Stadt ich fünf Täge auf ein Dampfschiff warten mußte da mich mein Cassenbestand verhinderte, wieder zu Thier weiter zu reisen, wie ich gewünscht hätte; Die Zeit benutzte ich aber gut um tüchtig Arabisch zu studiren. Endlich schiffte ich mich Mittwoch vor 14 Tagen Abends ein und war nächsten Morgen in dem von Bergen umschlossenen prächtigen Hafen des zur Zeit der Carthager, Römer und in der Blüthezeit Spaniens so bedeutenden Carthagena, des-

VORWORT

Im H. Barth-Nachlaß der Hamburger «Staats-und Universitätsbibliothek» stießen wir auf eine Gruppe von sechs Briefen aus des berühmten Afrika-Forschers erstem Tunesien-Aufenthalt (November 1845 - April 1846). Bis auf einen, von Hammamet an Karl Sieveking adressierten Brief (vgl. R. Italiaander, H. Barth. Er schloß uns einen Weiltteil auf. Hamburg 1970.) sind die übrigen alle an die Familie in Hamburg gerichtet und bis jetzt nicht veröffentlicht worden.
In Anbetracht ihrer - wenn auch nur beschränkten - Bedeutung für die tunesische Geschichte und ihrer Relevanz für die deutsch-tunesischen-maghrebinischen, kulturgeschichtlichen Beziehungen, nahmen wir uns vor, diese Zeugnisse dem arabischsprachigen Lesepublikum zugänglich zu machen. Es ist das Verdienst der jungen «Nationalen Stiftung für Uber-setzung, Textkritik und Studien» (Beit-al Hikma, Tunis) diese Publikation gefördert und verwirklichtzu haben.
Nicht zuletzt um diese Tunesien-Briefe in ihren maghrebinischen Kontext zu setzen, haben wir ihnen einen anderen, aus Algier, vorangestellt. Sämtliche Briefe haben wir auf der Grundlage einer Mikrofilm-Kopie behandelt, die wir von der Handschriftenabteilung der oben genannten Bibliothek erhielten. Dieser gilt unser besonderer Dank.

Mounir Fendri
Tunis, im September 1986.



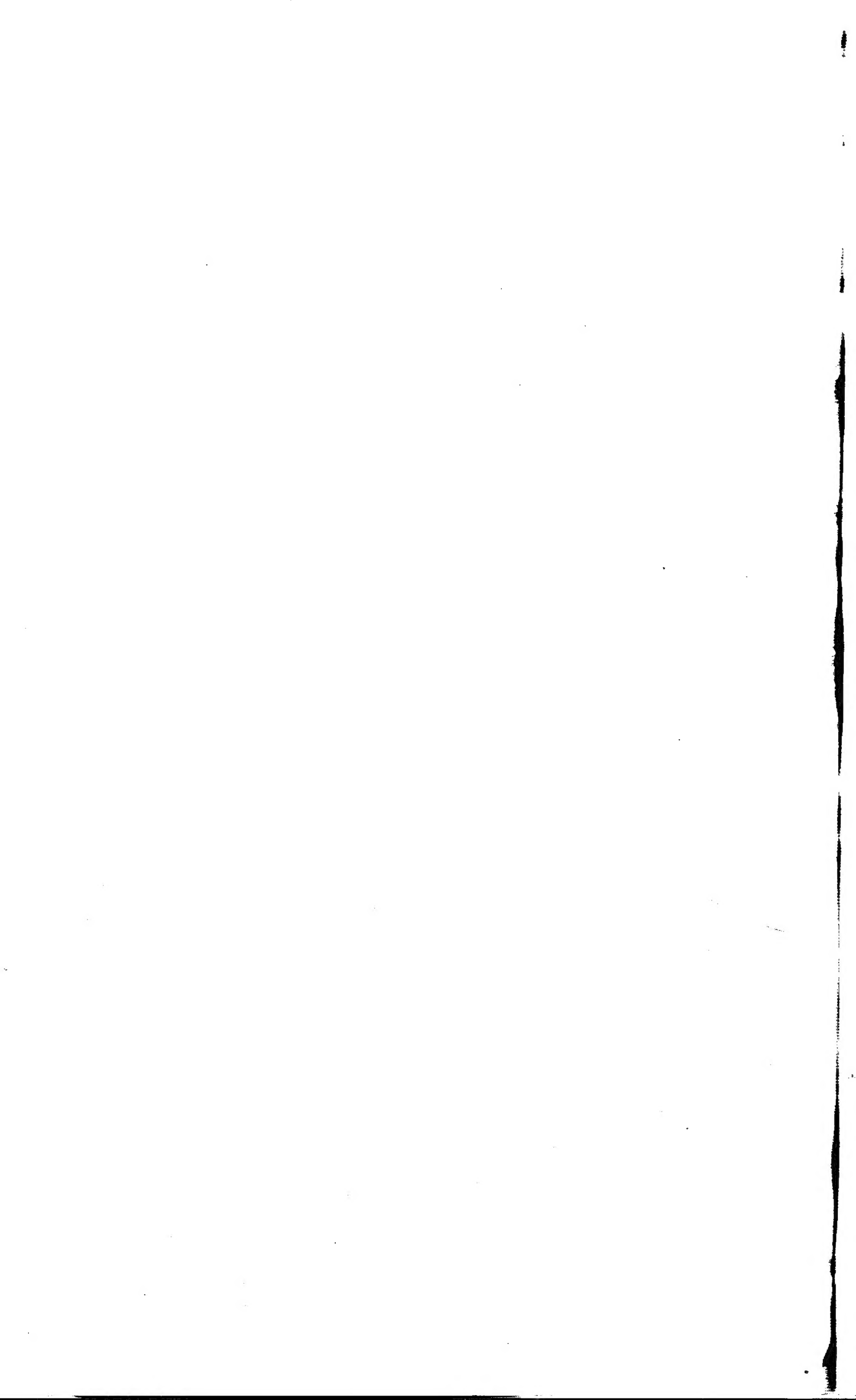
FONDATION NATIONALE POUR LA TRADUCTION
L'ETABLISSEMENT DES TEXTES ET LES ETUDES
* Beït al-Hikma *

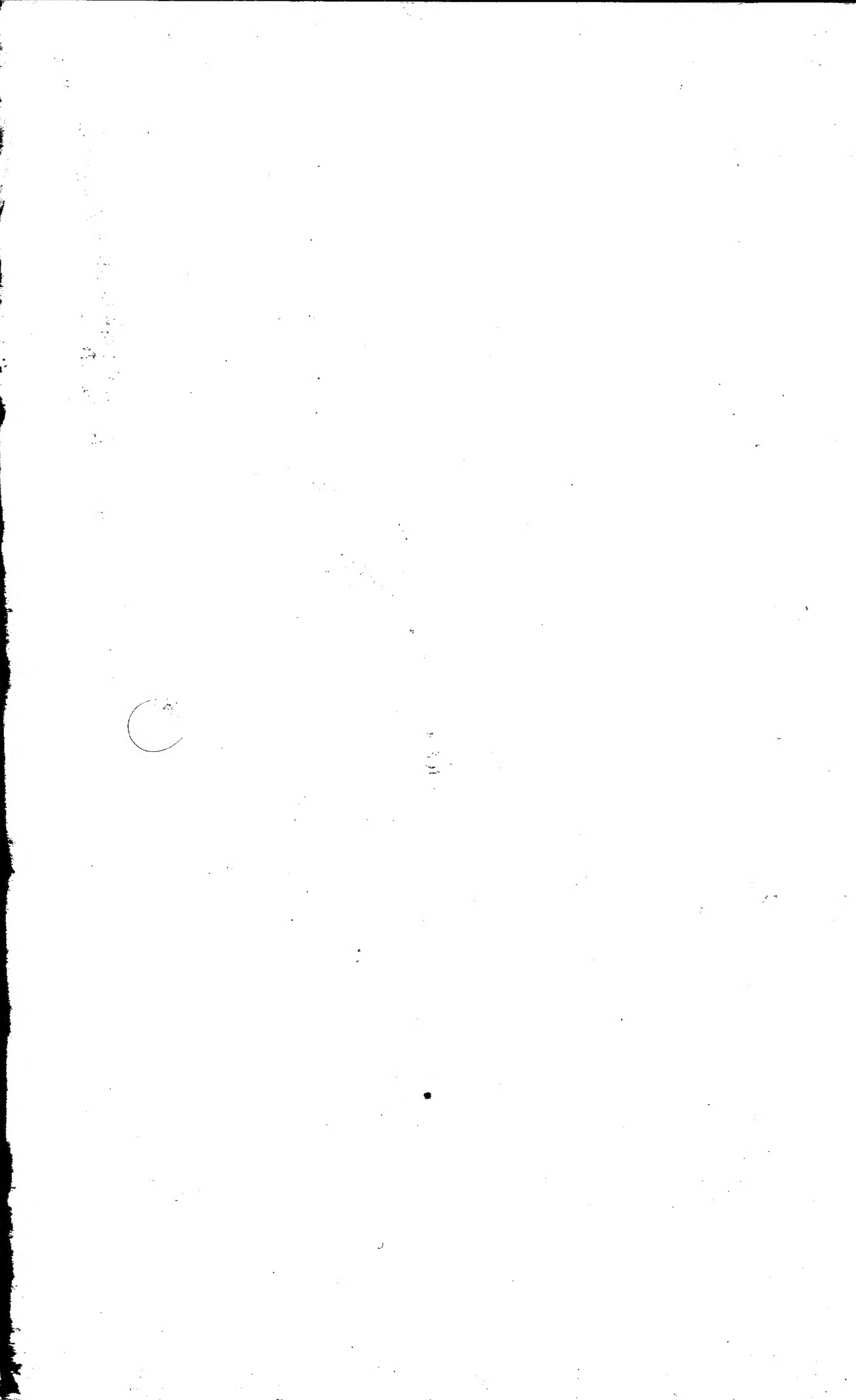
HEINRICH BARTH'S

BRIEFE AUS TUNESIEN

1845 - 1846

HERAUSGEGEBEN
UND INS ARABISCHE ÜBERSETZT
VON
MOUNIR FENDRI







FONDATION NATIONALE POUR LA TRADUCTION
L'ETABLISSEMENT DES TEXTES ET LES ETUDES
* Beït al-Hikma *

HEINRICH BARTH'S

BRIEFE AUS TUNESIEN

1845 - 1846

HERAUSGEGEBEN
UND INS ARABISCHE ÜBERSETZT

VON

MOUNIR FENDRI